٩

صفوة التفاسير

القسم التاسع

تفسير السور الكريمة

الأنبياء - الحج - المؤمنون

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طُبع على نفقة المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يُباع

دار القرآن الكريم

بيروت

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور والمعقول، مستمد من أوثق كتب التفسير
بأسلوب ميسّر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم التاسع

تفسير السور الكريمة
الأنبياء - الحج - المؤمنون

تأليف
محمّد علي الصّابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ ـــ ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة ، العمارية ، الرياض



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

هذه السورة مكية وهي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية في ميادينها الكبيرة « الرسالة ، الوحدانية ، البعث والجزاء » وتتحدث عن الساعة وشدائدها ، والقيامة وأهوالها ، وعن قصص الأنبياء المرسلين .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن غفلة الناس عن الآخرة ، وعن الحساب والجزاء ، بينما القيامة تلوح لهم وهم في غفلةٍ عن ذلك اليوم الرهيب ، وقد شغلتهم مغريات الحياة عن الحساب المرقوب .

* ثم انتقلت إلى الحديث عن المكذبين ، وهم يشهدون مصارع الغابرين ، ولكنهم لا يعتبرون ولا يتعظون ، حتى إذا ما فاجأهم العذاب ، رفعوا أصواتهم بالتضرع والاستغاثة ولكن هيهات .

* وتناولت السورة دلائل القدرة في الأنفس والآفاق ، لتنبه على عظمة الخالق المدبر الحكيم ، فيما خلق وأبدع ، ولتربط بين وحدة الكون ، ووحدة الإِلَه الكبير .

* وبعد عرض الأدلة والبراهين ، الشاهدة على وحدانية رب العالمين ، تذكر السورة حال المشركين وهم يتلقون الرسول عليه السلام بالاستهزاء والسخرية والتكذيب ، وتعقّب على ذلك بسنة الله الكونية في إهلاك الطغاة المجرمين .

* ثم تتناول السورة الكريمة قصص بعض الرسل ، وتتحدث بالإسهاب عن قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه الوثنيّين ، في أسلوب مشوّق ، فيه من نصاعة البيان ، وقوة الحجة والبرهان ما يجعل الخصم يقر بالهزيمة في خنوعٍ واستسلام ، وفي قصته عبر وعظات .

* وتتابع السورة الحديث عن الرسل الكرام فتتحدث عن « إسحاق ، ويعقوب ، ولوط ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، وإسماعيل ، وإدريس ، وذي الكفل ، وذي النون ، وزكريا ، وعيسى » بإيجاز مع بيان الأهوال والشدائد التي تعرضوا لها ، وتختم ببيان رسالة سيد المرسلين محمد بن عبد الله المرسل رحمة للعالمين .

التسمية : سميت « سورة الأنبياء » لأن الله تعالى ذكر فيها جملةً من الأنبياء الكرام في استعراضٍ

سريع ، يطول أحياناً ويقصر أحياناً ، وذكر جهادهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله ، وتفانيهم في تبليغ الدعوة لإسعاد البشرية .

اللغــة : ﴿أضغاث﴾ أخلاط جمع ضغث وهي الأهاويل التي يراها الإنسان في منامه ﴿قصمنا﴾ القصْم : كسر الشيء الصلب يقال : قصمتُ ظهره وانقصمت سنُّه إذا انكسرت ﴿يركضون﴾ الركضُ : العدو بشدَّة والركض ضرب الدابة بالرِّجل حثاً على العدو ﴿خامدين﴾ خمدت النار طفئت والخمود الهمود ويراد به الموت تشبيهاً بخمود النار ﴿فيدمغه﴾ دَمَغَه : أصاب دماغه نحو كَبَده ورَأسَه أصاب كبده ورأسه ﴿يستحسرون﴾ يعيون مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب .

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَٰلَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ

التفسير : ﴿اقترب للناس حسابهم﴾ أي قرب ودنا وقت حساب الناس على أعمالهم ﴿وهم في غفلةٍ مُعرضون﴾ أي وهم مستغرقون في الشهوات ، غافلون عن ذلك اليوم الرهيب ، لا يعملون للآخرة ولا يستعدون لها كقول القائل : الناس في غفلاتهم : ورحَى المنيَّة تطحن[1] ، وإنما وصف الآخرة بالاقتراب لأن كل ما هو آتٍ قريب ﴿ما يأتيهم من ذكرٍ من ربهِّم مُحدث﴾ أي ما يأتيهم شيءٌ من الوحي والقرآن من عند الله متجدِّد في النزول فيه عظةٌ لهم وتذكير ﴿إلاّ استمعوه وهم يلعبون﴾ أي إلاّ استمعوا القرآن مستهزئين قال الحسن : كلما جُدِّد لهم الذكرُ استمروا على الجهل[2] ﴿لاهيةً قلوبهم﴾ أي ساهيةً قلوبهم عن كلام الله ، غافلةً عن تدبر معناه ﴿وأسرُّوا النجوى الذين ظلموا﴾ أي تناجى المشركون فيما بينهم سراً ﴿هل هذا إلا بشرٌ مثلكم﴾ أي قالوا فيما بينهم خفيةً هل محمد الذي يدّعي الرسالة إلا شخص مثلكم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ ﴿أفتأتون السحر وأنتم تُبصرون﴾ أي أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر ؟ قال الألوسي : أرادوا أن ما أتى به محمد عليه السلام من قبيل السحر ، وذلك بناءً على ما ارتكز في اعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكاً وأن كل ما جاء به من الخوارق من قبيل السحر وعنوا بالسحر القرآن[3] ﴿قال ربي يعلم القول في السماء والأرض﴾ أي قال محمد ﷺ إنَّ ربي لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع بأقوالكم ، العليم بأحوالكم ، وفي هذا تهديدٌ لهم ووعيد ﴿بل قالوا أضغاثُ

(١) البيت لأبي العتاهية كذا في ابن كثير ٢/ ٥٠١ . (٢) القرطبي ١١/ ٢٦٨ . (٣) الألوسي ١٧/ ٩ .

﴿افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾

أحـلام﴾ هذا إضرابٌ من جهته تعالى وانتقال إلى ما هو أشنع وأقبح حيث قالوا عن القرآن إنه أخلاط منامات ﴿بـل افتـراه﴾ أي اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿بـل هـو شاعـر﴾ أي بل محمد شاعر وما أتى به شعر يخيل للسامع أنه كلام رائع مجيد قال في التسهيل : حكى عنهم هذه الأقوال الكثيرة ليظهر اضطراب أمرهم وبطلان أقوالهم فهم متحيرون لا يستقرون على شيء[1] ﴿فليأتنـا بآيـةٍ كمـا أُرسـل الأولون﴾ أي فليأتنا محمدٌ بمعجزةٍ خارقة تدل على صدقه كما أُرسل موسى بالعصا وصالح بالناقة ﴿مـا آمنتْ قبلهـم مـن قريـةٍ أهلكناهـا أفهـم يؤمنـون﴾ أي ما صدَّق قبل مشركي مكة أهل القرى الذين اقترحـوا على أنبيائهم الآيات بل كذبوا فأهلكهم الله أفيصدّق هؤلاء بالآيات لو رأوها ؟ كلا قال أبو حيان : وهـذا استبعادٌ وإنكار أي هؤلاء أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات فلو أعطيناهم ما اقترحوا لكانوا أضلَّ من أولئك واستحقوا عذاب الاستئصال ولكنَّ الله تعالى حكم بإبقائهم لعلمه أنه سيخرج منهم مؤمنون[2] ﴿ومـا أرسلنـا قبلـك إلاّ رجالاً نوحـي إليهم﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رسلاً من البشر لا ملائكة فكيف ينكر هؤلاء المشركون رسالتك ويقولون : ما هذا إلا بشر مثلكم ؟ ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتـم لا تعلمـون﴾ أي فاسألوا يا أهل مكة العلماء بالتوراة والإنجيل هل كان الرسل الذين جاءوهم بشراً أم ملائكة ؟ إن كنتم لا تعلمون ذلك ﴿ومـا جعلناهـم جسداً لا يأكلـون الطعـام﴾ أي ما جعلنا الأنبياء أجساداً لا يأكلون ولا يشربون كالملائكة بل هم كسائر البشر يأكلون ويشربون ، وينامون ويموتون ﴿ومـا كانـوا خالديـن﴾ أي ما كانوا مخلَّدين في الدنيا لا يموتون ﴿ثـم صدقناهم الوعـدَ فأنجيناهـم ومن نشاء﴾ أي ثم صدقنا الأنبياء ما وعدناهم به من نصرهـم وإهلاك مكذبيهـم وإنجائهـم مع أتباعهـم المؤمنين ﴿وأهلكنـا المسرفيـن﴾ أي وأهلكنا المكذبين للرسل ، المجاوزين الحدَّ في الكفر والضلال ، وهـذا تخويفٌ لأهل مكة ﴿لقـد أنزلنـا إليكـم كتاباً فيـه ذكرُكُـمْ﴾ اللام للقسم أي والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب كتاباً عظيماً مجيداً لا يماثله كتاب فيه شرفُكم وعزكُم لأنه بلغتكم ﴿أفـلا تعقلـون﴾ أي أفلا تعقلون هذه النعمة فتؤمنون بما جاءكم به محمد عليه السلام ؟ ﴿وكـم قصمنـا مـن قريـةٍ كانت ظالمة﴾ أي وكثيراً أهلكنا من أهل القرى الذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿وأنشأنا بعدهـم قومـاً آخريـن﴾

(١) التسهيل ٣/٢٣ . (٢) البحر ٦/٢٩٨ .

﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

أي وخلقنا أمة أخرى بعدهم ﴿فلما أحسّوا بأسنا إذا هم منها يركضون﴾ أي فلما رأوا عذابنا بحاسة البصر وتيقنوا نزوله إذا هم يهربون فارين منهزمين قال أبو حيان: لما أدركتهم مقدمة العذاب ركبوا دوابّهم يركضونها هاربين منهزمين[1] ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه﴾ أي تقول لهم الملائكة استهزاءً: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور ولين العيش ﴿ومساكنكم﴾ أي ارجعوا إلى مساكنكم الطيبة ﴿لعلكم تُسألون﴾ أي لعلكم تُسألون عما جرى عليكم ، وهذا كله من باب الاستهزاء والتوبيخ ﴿قالوا يا ويلنا إنّا كنا ظالمين﴾ أي قالوا يا هلاكنا ودمارنا إنا كنا ظالمين بالإشراك وتكذيب الرسل ، اعترفوا وندموا حين لا ينفعهم الندم ﴿فما زالت تلك دعواهم﴾ أي فما زالت تلك الكلمات التي قالوها يكررونها ويردّدونها ﴿حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ أي حتى أهلكناهم بالعذاب وتركناهم مثل الحصيد موتى كالزرع المحصود بالمناجل ﴿وما خلقنا السماءَ والأرضَ وما بينهما لاعبين﴾ أي لم نخلق ذلك عبثاً وباطلاً وإنما خلقناهما دلالةً على قدرتنا ووحدانيتنا ليعتبر الناس ويستدلوا بالخلق على وجود الخالق المدبّر الحكيم ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ قال ابن عباس : هذا ردٌّ على من قال اتخذ الله ولداً والمعنى لو أردنا أن نتخذ ما يُتلهى به من زوجةٍ أو ولد ﴿لاتخذناه من لَدُنَّا﴾ أي لاتخذناه من عندنا من الحور العين أو الملائكة ﴿إن كنا فاعلين﴾ أي لو أردنا فعل ذلك لاتخذنا من لدنا ولكنه منافٍ للحكمة فلم نفعله ﴿بل نقذف بالحقِّ على الباطل فيدمغه﴾ أي بل نرمي بالحق المبين على الباطل المتزعزع فيقمعه ويُبطله ﴿فإذا هو زاهق﴾ أي هالك تالف ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ أي ولكم يا معشر الكفار العذاب والدمار من وصفكم الله تعالى بما لا يجوز من الزوجة والولد ﴿وله من في السموات والأرض﴾ أي وله جلَّ وعلا جميع المخلوقات ملكاً وخلقاً وتصرفاً فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبدٌ ومخلوق له ؟ ﴿ومنْ عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾ أي والملائكة الذين عبدتموهم من دون الله لا يتكبرون عن عبادة مولاهم ولا يَعْيَون ولا يملُّون ﴿يُسبّحون الليلَ والنهار لا يفتُرون﴾ أي هم في عبادة دائمة ينزّهون الله عما لا يليق به

(١) البحر ٦/٣٠٢ .

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

ويصلّون ويذكرون الله ليل نهارَ لا يضعفون ولا يسأمون ﴿أم اتخذوا آلهةً من الأرضِ هم يُنشرون﴾ لما ذكر الدلائل على وحدانيته وأن من في السموات والأرض ملكٌ له وأن الملائكة المقربين في طاعته وخدمته عاد إلى ما كان عليه من توبيخ المشركين وذمهم وتسفيه أحلامهم ، و﴿أمْ﴾ منقطعة بمعنى بل والهمزة فيها استفهام معناه التعجب والإِنكار والمعنى هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهةً من الأرض قادرين على إحياء الموتى ؟ كلا بل اتخذوا آلهة جماداً لا تتصف بالقدرة على شيء فهي ليست بآلهة على الحقيقة لأن من صفة الإِلَه القدرةُ على الإِحياء والإِماتة ﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا﴾ هذا برهانٌ على وحدانيته تعالى أي لو كان في الوجود آلهة غير الله لفسد نظام الكون كله لما يحدث بين الآلهة من الاختلاف والتنازع[1] في الخلق والتدبير وقصد المغالبة ، ألا ترى أنه لا يوجد ملِكان في مدينة واحدة ، ولا رئيسان في دائرة واحدة ؟ ﴿فسبحان الله ربِّ العرش عما يصفون﴾ أي تنزّه الله الواحد الأحد خالق العرش العظيم عما يصفه به أهل الجهل من الشريك والزوجة والولد ﴿لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسْألون﴾ أي لا يسأل تعالى عمّا يفعل لأنه مالك كل شيء والمالك يفعل في ملكه ما يشاء ، ولأنه حكيم فأفعاله كلُّها جارية على الحكمة ، وهم يُسألون عن أعمالهم لأنهم عبيد ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة﴾ كرّر هذا الإِنكار استعظاماً للشرك ومبالغة في التوبيخ أي هل اتخذوا آلهة من دون الله تصلح للعبادة والتعظيم ؟ ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ أي قل يا محمد لأولئك المشركين ائتوني بالحجة والبرهان على ما تقولون ﴿هذا ذكرُ من معي وذكرُ من قبلي﴾ أي هذا الكتاب الذي معي والكتب التي من قبلي كالتوراة والإِنجيل ليس فيها ما يقتضي الإِشراك بالله ، ففي أي كتابٍ نزل هذا ؟ في القرآن أم في الكتب المنزّلة على سائر الأنبياء ؟ ! فما زعمتموه من وجود الآلهة لا تقوم عليه حجة لا من جهة العقل ولا النقل ، بل كتب الله السابقة شاهدة بتنزيهه عن الشركاء والأنداد ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحقَّ فهم معرضون﴾ أي بل أكثر المشركين لا يعلمون التوحيد فهم معرضون عن النظر والتأمل في دلائل الإِيمان .

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التنكير في غفلة للتعظيم والتفخيم ﴿وهم في غفلة﴾ .

---

(١) قال المفسرون : في الآية دليل على التمانع الذي أورده الأصوليون وذلك أنا لو فرضنا إلَهين فأراد أحدهما شيئاً وأراد الآخر نقيضه ، فإما أن تنفذ إرادة كل منهما وذلك محال لاستحالة اجتماع النقيضين ، وإما أن تنفذ إرادة واحد منهما دون الآخر فيكون الأول الذي تنفذ إرادته هو الإِله ، والثاني عاجزٌ فلا يصلح أن يكون إلَهاً .

٢ ـ صيغة المبالغة ﴿السميع العليم﴾ .

٣ ـ الإضراب الترقي ﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر﴾ وهذا الاضطراب في وصف القرآن يدل على التردُّد والتحير في تزويرهم للحق الساطع المنير فقولهم الثاني أفسد من الأول ، والثالث أفسد من الثاني .

٤ ـ الإنكار التوبيخي ﴿أفلا تعقلون﴾؟

٥ ـ التشبيه البليغ ﴿حصيداً خامدين﴾ أي جعلناهم كالزرع المحصود وكالنار الخامدة .

٦ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾ شُبِّه الحق بشيء صَلْب والباطل بشيء رخو واستعير لفظ القذف والدمغ لغلبة الحق على الباطل بطريق التمثيل فكأنه رمي بجرم صلب على رأس دماغ الباطل فشقّه وفي هذا التعبير مبالغة بديعة في إزهاق الباطل .

٧ ـ طباق السلب ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ .

٨ ـ التبكيت وإلقام الحجر للخصم ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ .

فَـائِـدَة : سئل كعب عن الملائكة كيف يسبّحون الليل والنهار لا يفترون ؟ أما يشغلهم شأن ، أما تشغلهم حاجة ؟ فقال للسائل : يا ابن أخي جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النَّفس ، ألست تأكل وتشرب ، وتقوم وتجلس ، وتجيء وتذهب وأنت تتنفس ؟ فكذلك جُعل لهم التسبيح[1] .

* * *

قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي . . إلى . . أفأنتم له منكرون﴾ من آية (٢٥) إلى نهاية آية (٥٠) .

المُنَاسَبَة : لما بيَّن تعالى أحوال المشركين وأقام الأدلة والبراهين على وحدانية الله وبطلان تعدد الآلهة ، ذكر هنا أن دعوة الرسل جميعاً إنما جاءت لبيان التوحيد ثم ذكر بقية الأدلة على قدرة الله ووحدانيته في هذا الكون العجيب .

اللغَة : ﴿رتْقاً﴾ الرتق : الضمُّ والالتحام وهو ضد الفتق يقال رتقتُ الشيء فأرتق أي التأم ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج ﴿تميد﴾ تتحرك وتضطرب ﴿فجاجاً﴾ جمع فجّ وهو المسلك والطريق الواسع ﴿يسْبَحُون﴾ يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء ﴿فتبهتهم﴾ تدهشهم وتحيرهم قال الجوهري : بهته بهتاً أخذه بغتة وقال الفراء : بهتَه إذا واجهه بشيء يحيّره[2] ﴿يكلأكم﴾ يحرسكم ويحفظكم والكلاءة : الحراسة والحفظ .

---

(١) زاد المسير ٥/ ٣٤٥ . (٢) القرطبي ١١/ ٢٩٠ .

سَبَبُ النُّزول : مرَّ النبي ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان : هذا نبيٌّ بني عبد مناف ! ! فغضب أبو سفيان وقال : ما تنكر أن يكون لبني عبد منافٍ نبيٌّ ؟ فرجع رسول الله ﷺ إلى أبي جهل وقال له : ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمَّك الوليد بن المغيرة فنزلت ﴿وإذا رآك الذين كفروا إنْ يتخذونك إلا هُزُواً . . ﴾[1] الآية .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا

التفسِير : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول﴾ أي وما بعثنا قبلك يا محمد رسولاً من الرسل ﴿إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا﴾ أي إلا أوحينا إليه أنه لا ربٌّ ولا معبود بحق سوى الله ﴿فاعبدون﴾ أي فاعبدوني وحدي وخصوني بالعبادة ولا تشركوا معي أحداً ﴿وقالوا اتَّخذ الرحمنُ ولداً﴾ أي قال المشركون اتخذ الله من الملائكة ولداً قال المفسرون : هم حيٌّ من خزاعة قالوا : الملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس عما يقول الظالمون ﴿بل عبادٌ مُكرمون﴾ أي بل هم عبادٌ مبجَّلون اصطفاهم الله فهم مكرمون عنده في منازل عالية ، ومقاماتٍ سامية وهم في غاية الطاعة والخضوع ﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله شأنُهُم شأن العبيد المؤدبين وهم بطاعته وأوامره يعملون لا يخالفون ربهم في أمرٍ من الأوامر ﴿يعْلم ما بين أيديهم وما خَلفهم﴾ أي علمه تعالى محيط بهم لا يخفى عليه منهم خافية ﴿ولا يشفعون إلاَّ لمن ارتضى﴾ أي لا يشفعون يوم القيامة إلا لمن رضي الله عنه وهم أهل الايمان كما قال ابن عباس : هم أهل شهادة لا إله إلا الله ﴿وهم من خشيته مشفقون﴾ أي وهم من خوف الله ورهبته خائفون حذرون لأنهم يعرفون عظمة الله قال الحسن: يرتعدون من خشية الله ﴿ومنْ يقُل منهم إني إلهٌ من دونه﴾ أي ومن يقل من الملائكة إني إلهٌ ومعبودٌ مع الله ﴿فذلك نجزيه جهنم﴾ أي فعقوبته جهنم قال المفسرون : هذا على وجه التهديد وعلى سبيل الفرض والتقدير لأن هذا شرط والشرطُ لا يلزم وقوعه والملائكة معصومون ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ أي مثل ذلك الجزاء الشديد نجزي من ظلم وتعدى حدود الله ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السمواتِ والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ استفهام توبيخ لمن ادعى مع الله آلهة وردٌّ على عبدة الأوثان أي أولم يعلم هؤلاء الجاحدون أن السموات والأرض كانتا

---

(١) روح المعاني ١٧/٤٨ .

﴿رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾

شيئاً واحداً ملتصقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقرَّ الأرض كما هي ؟ قال الحسن وقتادة : كانت السموات والأرض ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء[١] وقال ابن عباس : كانت السموات رتقاً لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تُنبت ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات[٢] ﴿وجعلنا من الماء كل شيءٍ حي﴾ أي جعلنا الماء أصل كل الأحياء وسبباً للحياة فلا يعيش بدونه إنسان ولا حيوان ولا نبات ﴿أفلا يؤمنون﴾ أي أفلا يصدّقون بقدرة الله ؟ ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم﴾ أي جعلنا في الأرض جبالاً ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب فلا يستقر لهم عليها قرار ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سُبُلاً لعلهم يهتدون﴾ أي وجعلنا في هذه الجبال مسالك وطرقاً واسعة كي يهتدوا إلى مقاصدهم في الأسفار قال ابن كثير : جعل في الجبال ثُغراً يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه فيجعل الله فيها فجوةً ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا[٣] ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ أي جعلنا السماء كالسقف للأرض محفوظة من الوقوع والسقوط وقال ابن عباس : حفظت بالنجوم من الشياطين ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ أي والكفار عن الآيات الدالة على وجود الصانع وقدرته من الشمس والقمر والنجوم وسائر الأدلة والعبر معرضون لا يتفكرون فيما ابدعته يد القدرة من الخلق العجيب والتنظيم الفريد الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة قال القرطبي : بيَّن تعالى أن المشركين غفلوا عن النظر في السموات وآياتها ، من ليلها ونهارها ، وشمسها وقمرها ، وأفلاكها ورياحها ، وما فيها من القدرة الباهرة إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعاً قادراً واحداً يستحيل أن يكون له شريك[٤] ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر﴾ أي وهو تعالى بقدرته نوَّع الحياة فجعل فيها ليلاً ونهاراً هذا في ظلامه وسكونه ، وهذا بضيائه وأنسه ، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وبالعكس ، وخلق الشمس والقمر آيتين عظيمتين دالتين على وحدانيته ﴿كلٌّ في فلك يَسْبَحون﴾ أي كلٌّ من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء ﴿وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخُلد﴾ أي وما جعلنا لأحدٍ من البشر قبلك يا محمد البقاء الدائم والخلود في الدنيا ﴿أفئن مِتَّ فهم الخالدون﴾ أي فهل إذا متَّ يا محمد سيخلَّدون بعدك في هذه الحياة ؟ لا لن يكون لهم ذلك بل كلٌّ إلى الفناء قال المفسرون : هذا ردٌّ لقول

(١) القرطبي ١١/٢٨٣ . (٢) زاد المسير ٥/٣٤٨ . (٣) المختصر ٢/٥٠٧ . (٤) القرطبي ١١/٢٨٥ .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾

المشركين ﴿شاعرٌ نتربص به ريب المنون﴾ فأعلم تعالى بأن الأنبياء قبله ماتوا وتولى الله دينه بالنصر والحياطة ، فهكذا نحفظ دينك وشرعك ﴿كلُّ نفسٍ ذائقة الموت﴾ أي كل مخلوقٍ إلى الفناء ولا يدوم إلا الحيُّ القيوم ﴿ونبلوكم بالشرِّ والخير فتنةً﴾ أي ونختبركم بالمصائب والنِّعم لنرى الشاكر من الكافر ، والصابر من القانط قال ابن عباس : نبتليكم بالشدة والرخاء ، والصحة والسَّقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلال[١] وقال ابن زيد : نختبركم بما تحبون لنرى كيف شكركم ، وبما تكرهون لنرى كيف صبركم[٢] ! ! ﴿وإلينا تُرجعون﴾ أي وإلينا مرجعكم فنجازيكم بأعمالكم ﴿وإذا رآك الذين كفروا إنْ يتخذونك إلاّ هُزُواً﴾ أي إذا رآك كفار قريش كأبي جهل وأشياعه ما يتخذونك إلاّمهْزُوءاً به يقولون ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ استفهام فيه إنكار وتعجيب أي هذا الذي يسب آلهتكم ويُسفِّه أحلامكم ؟ ﴿وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ أي وهم كافرون بالله ومع ذلك يستهزئون برسول الله قال القرطبي : كان المشركون يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن ، وهذا غاية الجهل[٣] ﴿خلق الإنسان من عَجَل﴾ أي رُكِّب الإنسان على العَجلة فخُلق عجولاً يستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مضرَّة قال ابن كثير : والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسولﷺ وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلوا ذلك[٤] ولهذا قال ﴿سأوريكم آياتي فلا تستعجلون﴾ أي سأوريكم انتقامي واقتداري على من عصاني فلا تتعجلوا الأمر قبل أوانه ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أي ويقول المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية : متى هذا العذاب الذي يعدنا به محمد إن كنتم يا معشر المؤمنين صادقين فيما أخبرتمونا به قال تعالى ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفُّون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾ أي لو عرف الكافرون فظاعة العذاب حين لا يستطيعون دفع العذاب عن وجوههم وظهورهم لأنه محيط بهم منْ جميع جهاتهم لما استعجلوا الوعيد قال في البحر : وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف لأنه أبلغ في الوعيد وأهيب وقدَّره الزمخشري بقوله : لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكنَّ جهلهم هو الذي هوَّنه عندهم[٥] ﴿ولا هم يُنصرون﴾ أي لا ناصر لهم من عذاب الله ﴿بل تأتيهم بغتةً فتبهتُهم﴾ أي بل تأتيهم الساعة فجأة فتدهشهم وتحيرهم ﴿فلا يستطيعون ردَّها ولا هم يُنْظرون﴾

(١) المختصر ٢/٥٠٨ . (٢) ابن الجوزي ٥/ ٣٥٠ . (٣) القرطبي ١١/ ٢٨٨ . (٤) المختصر ٢/ ٥٠٨ . (٥) البحر ٦/ ٣١٣ .

﴿فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾

أي فلا يقدرون على صرفها عنهم ولا يُمهلون ويُؤخرون لتوبةٍ واعتذار ﴿ولقد استهزىء برسلٍ من قبلك﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء المشركين أي والله لقد استهزىء برسلٍ أولي شأن خطير وذوي عدد كثير من قبلك يا محمد ﴿فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون﴾ أي فنزل وحلَّ بالساخرين من الرسل العذاب الذي كانوا يستهزئون به قال أبو حيان : سلاّه تعالى بأنَّ من تقدَّمه من الرسل وقع من أممهم الاستهزاء بهم ، وأن ثمرة استهزائهم جَنَوْها هلاكاً وعقاباً في الدنيا والآخرة فكذلك حال هؤلاء المستهزئين[1] ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين من يحفظكم من بأس الرحمن في أوقاتكم ؟ ومن يدفع عنكم عذابه وانتقامه إن أراد إنزاله بكم ؟ وهو سؤال تقريع وتنبيه كيلا يغترُّوا بما نالهم من نعم الله ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ أي بل هؤلاء الظالمون معرضون عن كلام الله ومواعظه لا يتفكرون ولا يعتبرون ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ أي ألهم آلهة تمنعهم من العذاب غيرنا ؟ ﴿لا يستطيعون نصر أنفسهم﴾ أي لا يقدرون على نصر أنفسهم ، فكيف ينصرون عابديهم ؟ ﴿ولا هم منا يُصحبون﴾ أي وليست هذه الآلهة تستطيع أن تجير نفسها من عذاب الله لأنها في غاية العجز والضعف قال ابن عباس : يُصحبون : يُجارون أي لا يُجيرهم منا أحد لأن المجير صاحب لجاره[2] ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العُمُر﴾ أي متعنا هؤلاء المشركين وآباءهم من قبلهم بما رزقناهم من حطام الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة وحسبوا أن ذلك يدوم فاغتروا بذلك ﴿أفلا يرون أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ أي أفلا ينظرون فيعتْبرون بأننا نأتي أرضهم فننقصها من أطرافها بالفتح على النبي وتسليط المسلمين عليها؟ ﴿أفهم الغالبون﴾ استفهام بمعنى التقريع والإِنكار أي أفهم الغالبون والحالة هذه أم المغلوبون ؟ بل هم المغلوبون الأخسرون الأرذلون ﴿قل إنما أنذركم بالوحي﴾ أي قل لهم يا محمد إنما أخوفكم وأحذركم بوحيٍ من الله لا من تلقاء نفسي ، فأنا مبلّغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ﴿ولا يسمع الصُمُّ الدعاء إذا ما يُنْذرون﴾ أي ولكنكم أيها المشركون لشدة جهلكم وعنادكم كالصُمّ الذين لا يسمعون الكلام والإِنذار فلا يتعظون ولا ينزجرون ﴿ولئن مسَّتْهم نفحةٌ من عذاب ربك﴾ أي

(١) البحر ٦/ ٣١٤ . (٢) زاد المسير ٥/ ٣٥٣ .

﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

ولئن أصابهم شيء خفيف مما أُنذروا به من عذاب الله ولو كان يسيراً ﴿ليقولُنّ يا ويلنا إنّا كنا ظالمين﴾ أي ليعترفنَّ بجريمتهم ويقولون :يا هلاكنا لقد كنا ظالمين لأنفسنا بتكذيبنا رسل الله ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ أي ونقيم الموازين العادلة التي توزن بها الأعمال في يوم القيامة ﴿فلا تُظلم نفسٌ شيئاً﴾ أي فلا يُنقص محسنٌ من إحسانه ، ولا يُزاد مسيءٌ على إساءته ﴿وإن كان مثقال حبةٍ من خردل أتينا بها﴾ أي وإن كان العمل الذي عملته زنة حبةٍ من خردل جئنا بها وأحضرناها قال أبو السعود : أي وإن كان في غاية القلة والحقارة ، فإن حبة الخردل مثلٌ في الصغر[1] ﴿وكفى بنا حاسبين﴾ أي كفى بربك أن يكون محصياً لأعمال العباد مجازياً عليها قال الخازن : والغرضُ منه التحذير فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيء ، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء فحقيق بالعاقل أن يكون على أشدّ الخوف منه[2] ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين﴾ أي ولقد أعطينا موسى وهارون التوراة الفارقة بين الحق والباطل والهدى والضلال نوراً وضياءً وتذكيراً للمؤمنين المتقين ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ أي هم الذين يخافون الله ولم يروه لأنهم عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم رباً عظيماً قادراً يجازي على الأعمال فهم يخشونه وإن لم يروه ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ أي وهم من أهوال القيامة وشدائدها خائفون وجلون ﴿وهذا ذكرٌ مباركٌ أنزلناه﴾ أي وهذا القرآن العظيم كتاب عظيم الشأن فيه ذكرٌ لمن تذكّر ، وعظة لمن اتعظ، كثير الخير أنزلناه عليكم بلغتكم ﴿أفأنتم له منكرون﴾ أي أفأنتم يا معشر العرب منكرون له وهو في غاية الجلاء والظهور ؟ قال الكرخي : الاستفهام للتوبيخ والخطابُ لأهل مكة فإنهم من أهل اللسان يدركون مزايا الكلام ولطائفه ، ويفهمون من بلاغة القرآن ما لا يدركه غيرهم مع أن فيه شرفهم وصيتَهم فلو أنكره غيرهم لكان لهم مناصبته وعداؤه[3] .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا . . رسول﴾ .

٢ ـ الاستفهام الذي معناه التعجب والإنكار ﴿أولم ير الذين كفروا﴾ .

(١) أبو السعود ٣/ ١٢٤ . (٢) حاشية الجمل ٣/ ١٣١ . (٣) انظر البحر المحيط ٦/ ٣١٢ .

٣ ـ الطباق بين الرتق والفتق في قوله ﴿كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ .

٤ ـ التنكير للتعميم ﴿وجعلنا من الماء كل شيءٍ حيَ﴾ ﴿وما جعلنا لبشر﴾ .

٥ ـ الالتفات من المتكلم إلى الغائب ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار﴾ بعد قوله ﴿وجعلنا من الماء﴾ وذلك لتأكيد الاعتناء بالنعم الجليلة التي أنعم بها على العباد .

٦ ـ الطباق بين الشر والخير ﴿ونبلوكم بالشر والخير﴾ .

٧ ـ المبالغة ﴿خُلق الإنسانُ من عجل﴾ جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من نفس العجل كقول العرب لمن لازم اللعب : هو من لعب وكوصف بعضهم قوماً بقوله «نساؤ هم لُعُب ورجالهم طرب» .

٨ ـ الاستعارة ﴿ولا يسمع الصُمُّ الدعاء﴾ استعار الصُمَّ للكفار لأنهم كالبهائم التي لا تسمع الدعاء ولا تفقه النداء .

٩ ـ الكناية ﴿حبة من خردل﴾ كناية عن العمل ولو كان في غاية القلة والحقارة .

١٠ ـ السجع اللطيف ﴿يهتدون ، يسبحون ، يُنصرون﴾ الخ .

تنبيه : سئل ابن عباس : هل الليل كان قبل أو النهار ؟ فقال : أرأيتم الى السموات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة ؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار[١] .

لطيفة : عن ابن عمر أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما فقال له : إذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعال فأخبرني بما قال لك ـ يريد ابن عباس ـ فذهب إليه فسأله فقال ابن عباس : كانت السموات رتقاً لا تُمْطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تُنبت ، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات ، فرجع الرجل الى ابن عمر فأخبره فقال ابن عمر : قد كنت أقول : ما يعجبني جراءة ابن عباس في تفسير القرآن ، فالآن علمتُ بأنه قد أُوتي في القرآن علماً[٢] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد آتينـا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين. . إلى . . وكنا لهم حافظين﴾
من آية (٥١) إلى نهاية آية (٨٢) .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى الدلائل على التوحيد والنبوة والمعاد أتبع ذلك بذكر قصص الأنبياء ، وما نال كثيراً منهم من الابتلاء تسليةً للرسول الأعظم ﷺ ليتأسّى بهم في الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله تعالى ، وتوطين النفس على مجابهة المشركين أعداء الله .

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٠٦ . (٢) نفس المرجع السابق والصفحة .

اللغــة : ﴿رشـده﴾ هداه إلى وجوه الصلاح ﴿التماثيل﴾ جمع تمثال وهو الصورة المصنوعة مشبهة بمخلوق من مخلوقات الله تعالى يقـال : مثَّلـت الشيء بالشيء أي شبهتـه به واسـم ذلك الممثَّـل تمثـال ﴿جُذاذاً﴾ فتاتاً والجذُّ : الكسر والقطع قال الشاعر :

بنـو المهلَّـب جذَّ اللـه دابرهم أمْسوا رمـاداً فلا أصـلٌ ولا طرف[1]

﴿نُكسوا﴾ النَّكْسُ : قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفل ﴿نافلة﴾ زيادة ومنه النفل لأنه زيادة على ما فرض الله ويقال لولد الولد نافلة لأنه زيادة على الولد ﴿الكرب﴾ الغم الشديد ﴿نفشت﴾ النَّفش : الرعيُ بالليل بلا راع يقال : نفشت بالليل ، وهملت بالنهار إذا رعت بلا راع .

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا

التفسير : ﴿ولقـد آتينـا إبراهيـم رُشـده﴾ أي والله لقد أعطينا إبراهيم هُداه وصلاحه إلى وجوه الخير في الدين والدنيا ﴿مـن قبـلُ﴾ أي من صغره حيث وفقناه للنظر والاستدلال إلى وحدانية ذي الجلال ﴿وكنـا بـه عالميـن﴾ أي عالمين أنه أهلٌ لما آتيناه من الفضل والنبوة ﴿إذ قال لأبيـه وقومه ما هـذه التماثيل التي أنتـم لها عاكفـون﴾ هذا بيانٌ للرشد الذي أُوتيه إبراهيم من صغره أي حين قال لأبيه آزر وقومه المشركين ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها ؟ وفي قوله ﴿مـا هذه التماثيـل﴾ تحقيرٌ لها وتصغيرٌ لشأنها وتجاهل بها مع علمه بتعظيمهم لها ﴿قالـوا وجدنـا آباءنـا لها عابديـن﴾ أي نعبدها تقليداً لأسلافنا قال ابن كثير : لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال[2] ﴿قال لقـد كنتـم أنتـم وآباؤكـم في ضـلالٍ مبيـن﴾ أي لقد كنتم وأسلافكم الذين عبدوا هذه الأصنام في خطأٍ بيِّن بعبادتكم إياها إذ هي جمادات لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ﴿قـالوا أجئتنـا بالحـقِّ أم أنـت من اللاعبيـن﴾ أي هل أنت جادٌّ فيما تقول أم لاعب ؟ وهل قولك حقٌ أم مزاح ؟ استعظموا إنكاره عليهم ، واستبعدوا أن يكون ما هم عليه ضلالاً ، وجوَّزوا أن ما قاله على سبيل المزاح لا الجد فأضرب عن قولهم وأخبر أنه جادٌّ فيما قال غير لاعب ﴿قـال بل ربكـم ربُّ السمـوات والأرض الـذي فطرهُنَّ﴾ أي ربكم الجدير بالعبادة هو ربُّ السموات والأرض الذي خلقهنَّ وأبدعهنَّ لا هذه الأصنام المزعومة ﴿وأنـا علـى ذلكـم من الشاهديـن﴾ أي وأنا شاهد للّهِ بالوحدانية بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة كالشاهد الـذي تقطـع به الدَّعـاوى ﴿وتاللّـهِ لأكيـدنَّ أصنامكـم بعد أن تولُّـوا مدبريـن﴾ أي وأقسمُ بالله لأمكرنَّ بآلهتكم وأحتالـنَّ في وصول الضر

(١) البحر ٦/٣١٨ . (٢) المختصر ٢/٥١١ .

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

إليها بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم قال المفسرون : كان لهم عيد يخرجون إليه في كل سنة ويجتمعون فيه فقال آزر لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ! ! فخرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال إني سقيم أشتكي رجلي فتركوه ومضوا ثم نادى في آخرهم ﴿وتاللهِ لأكيدنَّ أصنامكم﴾ فسمعها رجلٌ فحفظها[1] ﴿فجعلهم جُذاذاً﴾ أي كسَّر الأصنام حتى جعلها فتاتاً وحُطاماً ﴿إلا كبيراً لهم﴾ أي إلا الصنم الكبير فإنه لم يكسره قال مجاهد : ترك الصنم الأكبر وعلَّق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه ليحتجَّ به عليهم[2] ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ أي لعلَّهم يرجعون إلى الصنم فيسألونه عمن كسَّر الأصنام فيتبين لهم عجزه وتقوم الحجة عليهم ﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾ في الكلام محذوفٌ تقديره : فلما رجعوا من عيدهم ونظروا إلى آلهتهم ورأوا ما فُعل بها قالوا على جهة البحث والإنكار والتشنيع والتوبيخ : إنَّ من حطَّم هذه الآلهة لشديد الظلم عظيم الجرم لجراءته على الآلهة المستحقة للتعظيم والتوقير ﴿قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ أي قال من سمع إبراهيم يقول ﴿وتاللهِ لأكيدنَّ أصنامكم﴾ سمعنا فتى يذكرهم بالذم ويسبُّهم ويعيبهم يسمى إبراهيم فلعله هو الذي حطَّم الآلهة ! ﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس﴾ أي قال نمرود وأشراف قومه أحضروا إبراهيم بمرأى من الناس حتى يروه ، والغرضُ أن تكون محاكمته على رءوس الأشهاد بحضرة الناس كلهم ليكون عقابه عبرة لمن يعتبر ﴿لعلهم يشهدون﴾ أي لعلهم يحضرون عقابه ويرون ما يصنع به ﴿قالوا أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾ أي هل أنتَ الذي حطَّمت هذه الآلهة يا إبراهيم ؟ ﴿قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ أي قال إبراهيم بل حطَّمها الصنم الكبير لأنه غضب أن تعبدوا معه هذه الصغار فكسرها ، والغرض تبكيتُهم وإقامة الحجة عليهم ولهذا قال ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ أي اسألوا هذه الأصنام من كسرها؟إن كانوا يقدرون على النطق قال القرطبي : والكلام خرج مخرج التعريض وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله كما قال إبراهيم لأبيه ﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ فقال إبراهيم ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ ليقولوا إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرون فيقول لهم فلم تعبدونهم ؟ فتقوم عليهم الحجة منهم كما يجوز فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من نفسه فإنه أقرب في الحجة وأقطع للشبهة[3] ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي رجعوا إلى عقولهم وتفكروا بقلوبهم ﴿فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ أي

(١) تفسير الخازن ٣/ ٢٤١ . (٢) القرطبي ١١/ ٢٩٨ . (٣) القرطبي ١١/ ٣٠٠ .

﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾

أنتم الظالمون في عبادة ما لا ينطق ﴿ثم نُكسوا على رءوسهم﴾ أي انقلبوا من الإذعان إلى المكابرة والطغيان ﴿لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون﴾ أي قالوا في لجاجهم وعنادهم : لقد علمتَ يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تتكلم ولا تجيب فكيف تأمرنا بسؤالها ؟ وهذا إقرار منهم بعجز الآلهة ، وحينئذٍ توجهت لإبراهيم الحجة عليهم فأخذ يوبخهم ويعنّفهم ﴿قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾ أي أتعبدون جمادات لا تضر ولا تنفع ؟ ﴿أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ أي قبحاً لكم ونتناً لكم وللأصنام التي عبدتموها من دون الله ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تعقلون قبح صنيعكم ؟ ﴿قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم﴾ لمّا لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب عدلوا إلى البطش والتنكيل فقالوا : احرقوا إبراهيم بالنار انتقاماً لآلهتكم ونصرةً لها ﴿إن كنتم فاعلين﴾ أي إن كنتم ناصريها حقاً ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ أي ذات بردٍ وسلامة وجاءت العبارةُ هكذا للمبالغة قال المفسرون : لما أرادوا إحراق إبراهيم جمعوا له حطباً مدة شهر حتى كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحرق إبراهيم ، ثم جعلوه في حفرة من الأرض وأضرموها ناراً فكان لها لهب عظيم حتى إن الطائر ليمرُّ من فوقها فيحترق من شدة وهجها وحرها ، ثم أوثقوا إبراهيم وجعلوه في منجنيق ورموه في النار ، فجاء إليه جبريل فقال : ألك حاجة ؟ قال أمّا إليك فلا ، فقال جبريل : فاسأل ربك ، فقال : «حسبي من سؤالي علمه بحالي » فقال الله : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم[1] ، ولم تحرق النار منه سوى وثاقه وقال ابن عباس : لو لم يقل الله ﴿وسلاماً﴾ لآذى إبراهيم بردها[2] ﴿وأرادوا به كيداً﴾ أي أرادوا تحريقه بالنار ﴿فجعلناهم الأخسرين﴾ أي أخسر الناس وأخسر من كل خاسر حيث كادوا لنبيِّ اللهِ فردَّ الله كيدهم في نحورهم ﴿ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ أي ونجينا إبراهيم مع ابن أخيه لوط حيث هاجرا من العراق إلى الشام التي بارك الله فيها بالخِصب وكثرة الأنبياء ووفرة الأنهار والأشجار قال ابن الجوزي : وبركتُها أن الله عزَّ وجل بعث أكثر الأنبياء منها وأكثر فيها الخِصب والأنهار[3] ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ أي أعطينا إبراهيم ـ بعدما سأل ربه الولد ـ إسحاق وأعطيناه كذلك يعقوب نافلةً أي زيادة وفضلاً من غير سؤال قال المفسرون : سأل إبراهيم ربه ولداً فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة زيادة على ما سأل لأنَّ ولد الولد كالولد ﴿وكلاً جعلنا

(١) القرطبي ١١/٣٠٣ . (٢) المختصر ٢/٥١٤ . (٣) زاد المسير ٥/٣٦٨ .

وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ

صالحيـــن﴾ أي وكلاً من إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعلناه من أهل الخير والصلاح ﴿وجعلناهــم أئمــةً يهدون بأمرنــا﴾ أي جعلناهم قدوةً ورؤ ساء لغيرهم يرشدون الناس إلى الدين بأمر الله ﴿وأوحينــا إليهــم فعـــل الخيــرات﴾ أي أوحينا إليهم أن يفعلوا الخيرات ليجمعوا بين العلم والعمل ﴿وإقام الصــلاة وإيتاء الزكـــاة﴾ أي وأمرناهم بطريق الوحي بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وإنما خصهما بالذكر لأن الصلاة أفضلُ العبادات البدنية ، والزكاة أفضلُ العبادات المالية ﴿وكانــوا لنا عابديـــن﴾ أي موحـدين مخلصـين في العبادة ﴿ولوطـــاً آتينـــاه حُكمـــاً وعلمـــاً﴾ أي وأعطينا لوطاً النبوة والعلم والفهم السديد قال ابن كثير : كان لوط قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتَّبعه وهاجر معه كما قال تعالى ﴿فآمـــن له لوطٌ وقال إنـي مهاجرٌ إلى ربي﴾ فآتاه الله حكماً وعلماً وأوحى إليه وجعله نبياً وبعثه إلى « ســدوم » فكذبوه فأهلكهـــم الله ودمَّر عليهم كما قصَّ خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز[1] ﴿ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث﴾ أي خلَّصناه من أهل قرية سدوم الذين كانوا يعملون الأعمال الخبيثة كاللواط وقطع السبيل وغـير ذلك ﴿إنهـم كانـوا قوم سَوْءٍ فاسقيـــن﴾ أي كانوا أشراراً خارجين عن طاعة الله ﴿وأدخلنـــاه في رحمتنـا إنــه مـن الصالحيـــن﴾ أي أدخلناه في أهل رحمتنا لأنه من عبادنا الصالحين ﴿ونـوحـــاً إذْ نـــادى مـن قبـلُ﴾ أي واذكر قصة نوح حين دعا على قومه من قبل هؤ لاء الأنبياء المذكورين ، دعا عليهم بالهلاك حين كذبوه بقوله ﴿ربِّ لا تـــذَرْ على الأرض مـن الكافرين ديَّاراً﴾ ﴿فاستجبنـا له فنجينـــاه وأهله من الكرب العظيـــم﴾ أي استجبنا دعاءه فأنقذنـاه ومن معه من المؤ منين ـ ركاب السفينة ـ من الطوفان والغرق الذي كان كرباً وغماً شديداً يكاد يأخذ بالأنفـاس ﴿ونصرنـــاه مـــن القــوم الــذين كذبـوا بآياتنـا﴾ أي منعنـاه من شر قومـه المكذبين فنجيناه وأهلكناهم ﴿إنهـم كانوا قوم سَوْءٍ فأغرقناهـــم أجمعيـن﴾ أي كانـوا منهمكين في الشرّ فأغرقناهم جميعاً ولم نُبْق منهم أحداً ﴿وداودَ وسليمانَ إذْ يحكمـــان فـي الحرث﴾ أي واذكر قصة داود وسليمان حين يحكمان في شأن الزرع ﴿إذ نَفشتْ فيـــه غنـــم القـــوم﴾ أي وقت رعت فيه غنم القوم ليلاً فأفسدته ﴿وكنـــا لحكمهـــم شاهديـــن﴾ أي كنا مطَّلعين على حكم كلٍ منهما عالمين به ﴿ففهمناهـا سليمـــان﴾ أي

(١) المختصر ٢/ ٥١٥ .

شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

علمنا وألهمنا سليمان الحكم في القضية ﴿وكــلاً آتينـا حكماً وعلمــاً﴾ أي وكلاً من داود وسليمان أعطيناه الحكمة والعلم الواسع مع النبوة قال المفسرون : تخاصم إلى داود رجلان دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر بالليل فأفسدته فلم تُبق منه شيئاً ، فقضى بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم ، فخرج الرجلان على سليمان وهو بالباب فأخبراه بما حكم به أبوه فدخل عليه فقال : يا نبيَّ الله لو حكمتَ بغير هذا كان أرفق للجميع ! قال : وما هو؟ قال : يأخذ صاحب الغنم الأرض فيصلحها ويبذرها حتى يعود زرعها كما كان ، ويأخذ صاحب الزرع الغنم وينتفع بألبانها وصوفها ونسلها ، فإذا خرج الزرع رُدَّت الغنم إلى صاحبها والأرض إلى ربها فقال له داود : وُفِّقت يا بُنيَّ وقضى بينهما بذلك فذلك قوله تعالى ﴿ففهمناها سليمـان﴾ ﴿وسخرنـا مع داود الجبـال يسبّحن والطيـر﴾ أي جعلنا الجبال والطير تسبّح مع داود إذا سبّح قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور فكان إذا ترنّم بها تقف الطير في الهواء فتجاوبه وتردُّ عليه الجبال تأويباً[١] وإنما قدَّم ذكر الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأغرب وأدخل في الإعجاز لأنها جماد ﴿وكنـا فاعليـن﴾ أي وكنا قادرين على فعل ذلك ﴿وعلمنـاه صنْعـةَ لبوس لكـم﴾ أي علمنا داود صنع الدروع بإلانةِ الحديد له قال قتادة : أول من صنع الدروع داود وكانت صفائح فهو أول من سردها وحلَّقها[٢] ﴿لتُحْصنكـم من بأسكـم﴾ أي لتقيكم في القتال شرَّ الأعداء ﴿فهـل أنتـم شاكـرون﴾ استفهامٌ يراد به الأمر أي اشكروا الله على ما أنعم به عليكم ، ولما ذكر تعالى ما خصَّ به نبيه داود عليه السلام ذكر ما خصَّ به ابنه سليمان فقال ﴿ولسليمان الريـح عاصفـة﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفةً أي شديدة الهبوب ﴿تجـري بأمـره إلى الأرض التي باركنـا فيهـا﴾ أي تسير بمشيئته وإرادته إلى أرض الشام المباركة بكثرة الأشجار والأنهار والثمار ، وكانت مسكنه ومقر ملكه ﴿وكنـا بكـل شيءٍ عالميـن﴾ أي وكنا عالمين بجميع الأمور فما أعطيناه تلك المكانة إلا لما نعلمه من الحكمة ﴿ومـن الشياطيـن مـن يغوصـون لـه﴾ أي وسخرنا لسليمان بعض الشياطين يغوصون في الماء ويدخلون أعماق البحار ليستخرجوا له الجواهر واللآلىء ﴿ويعملـون عمـلاً دون ذلـك﴾ أي ويعملون أعمالاً أخرى سوى الغوص كبناء المدن والقصور الشاهقة والأمور التي يعجز عنها البشر ﴿وكنـا لهـم حافظيـن﴾ أي نحفظهم عن الزيغ عن أمره أو الخروج عن طاعته .

(١) المختصر ٢/ ٥١٦ . (٢) القرطبي ١١/ ٣٢٠ .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات من وجوه الفصاحة والبديع ما يلي :

١ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿ثم نُكسوا على رءوسهم﴾ شبه رجوعهم عن الحق إلى الباطل بانقلاب الشخص حتى يصبح أسفله أعلاه بطريق الاستعارة .

٢ ـ الطباق بين ﴿ينفعكم ويضركم﴾ .

٣ ـ المبالغة ﴿كوني برداً﴾ أطلق المصدر وأراد اسم الفاعل أي باردة أو ذات برد .

٤ ـ عطف الخاص على العام ﴿فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ لأن الصلاة والزكاة من فعل الخيرات وإنما خصهما بالذكر تنبيهاً لعلو شأنهما وفضلهما .

٥ ـ الاحتراس ﴿وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾ دفعاً لتوهم انتقاص مقام داود عليه السلام .

٦ ـ المجاز المرسل ﴿وأدخلناه في رحمتنا﴾ أي في الجنة لأنها مكان تنزل الرحمة فالعلاقة المحلية .

٧ ـ السجع غير المتكلف ﴿العابدين الصابرين ، الصالحين﴾ الخ .

تـنبيـه : وصف تعالى الريح ههنا بقوله ﴿عاصفة﴾ ووصفها في مكان آخر بقوله ﴿رخاء﴾ والعاصفة هي الشديدة ، والرخاء هي اللّينة ، ولا تعارض بين الوصفين لأن الريح كانت ليّنة طيبة وكانت تسرع في جريها كالعاصف فجمعت الوصفين فتدبر .

* * *

قال الله تعالى :﴿وأيوب إذ نادى ربَّه أني مسني الضر . .إلى . .وربُّنا الرحمنُ المستعانُ على ما تصفون﴾ من آية (٨٣) إلى نهاية السورة الكريمة .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى جملةً من الأنبياء « ابراهيم ، نوح ، لوط ، داود ، سليمان » وما نال كثيراً منهم من الابتلاء ، ذكر هنا قصة أيوب وابتلاء الله له بأنواع المحن ثم أعقبها بذكر محنة يونس وزكريا وعيسى وكلٌ ذلك بقصد التسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم .

اللغَـة : ﴿ذا النون﴾ النون : الحوت وذا النون لقب ليونس بن متّى لابتلاع النون له ﴿أحصنت﴾ الإحصان : العفة يقال : رجل محصنٌ وامرأة محصنة أي عفيفة ﴿رغباً ورهباً﴾ الرغب : الرجاء ، والرهب : الخوف ﴿كفران﴾ الكفر والكفران : الجحود وأصله الستر لأن الكافر يستر نعمة الله ويجحدها ﴿حَدَب﴾ الحدب : ما ارتفع من الأرض مأخوذ من حدبة الظهر قال عنترة :

فما رعِشتْ يداي ولا ازدهاني   تواترهم إليَّ من الحِداب[1]

﴿ينسلون﴾ يسرعون يقال : نسل الذئب ينسل نسلاناً أي أسرع ﴿حصب﴾ الحصب : ما توقد به النار

---

(١) القرطبي ١١/٣٤١ .

كالحطب وغيره ﴿زفير﴾ أنين وتنفس شديد ﴿حسيسها﴾ الحسيس : الصوتُ والحسُّ والحركة الذي يُحس به من حركة الأجرام ﴿السجلّ﴾ الصحيفة لأن بها يُسجل المطلوب .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس قال : لما نزل قوله تعالى ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصبُ جهنم﴾ شقَّ ذلك على كفار قريش وقالوا : شتم آلهتنا وأتوا ابن الزِّبعري وأخبروه فقال : لو حضرتُه لرددتُ عليه قالوا : وما كنت تقول له ؟ قال أقول له : هذا المسيح تعبده النصارى ، وهذا عزير تعبده اليهود ؛ أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنَّ محمداً قد خصم فأنزل الله ﴿إن الذين سبقتْ لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾[1] .

* وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾

التفسير : ﴿وأيوبَ إذ نادى ربه﴾ أي واذكر قصة نبيِّ الله أيوب حين دعا ربَّه بتضرع وخشوع ﴿أني مسني الضرُّ﴾ أي نالني البلاء والكرب والشدة قال المفسرون : كان أيوب نبياً من الروم ، وكان له أولاد ومال كثير ، فأذهب الله ماله فصبر ، ثم أهلك الأولاد فصبر ، ثم سلَّط البلاء والمرض على جسمه فصبر فمر عليه ملأ من قومه فقالوا : ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم فعند ذلك تضرَّع إلى الله فكشف عنه ضره ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ أي أكثرهم رحمة فارحمني ، ولم يصرِّح بالدعاء ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف ، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه ، فكان فيه من حسن التلطف ما ليس في التصريح بالطلب ﴿فاستجبنا له﴾ أي أجبنا دعاءه وتضرعه ﴿فكشفنا ما به من ضُرٍّ﴾ أي أزلنا ما أصابه من ضر وبلاء ﴿وآتيناه أهله ومثلهم معهم﴾ قال ابن مسعود : مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفي أُحيوا له وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات[2] . والمعنى أعطيناه أهله في الدنيا ورزقناه من زوجته مثل ما كان له من الأولاد والأتباع ﴿رحمةً من عندنا﴾ أي من أجل رحمتنا إيّاه ﴿وذكرى للعابدين﴾ أي وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر قال القرطبي : أي وتذكيراً للعُبَّاد لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب ومحنته وصبره وطّنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا مثل ما فعل أيوب وهو أفضل أهل زمانه[3] ، يُروى أنَّ أيوب مكث في البلاء ثمان عشرة سنة فقالت له امرأته يوماً : لو دعوتَ الله عز وجل فقال لها : كم لبثنا في الرخاء ؟ فقالت : ثمانين سنة فقال : إني أستحيي من الله أن أدعوه وما مكثت في بلائي المدة التي مكثتها في رخائي[4] ﴿وإسماعيل وإدريسَ وذا الكفل﴾ أي

(١) القرطبي ١١/ ٣٢٧ . (٢) هذا الأثر عن ابن مسعود أن الله أحيا أولاده بعد موتهم فيه نظر ، لأنه لا يرجع أحد إلى الدنيا بعد انتقاله منها إلا ما كان من معجزة المسيح عليه السلام والصحيح أن الله عوَّضه من زوجته أولاداً مثل من فقدهم . (٣) القرطبي ١١/ ٣٢٧ . (٤) النسفي ٣/ ٨٧ .

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾

واذكر لقومك قصة إسماعيل بن إبراهيم وإدريس بن شيث وذا الكفل ﴿كلٌّ من الصابرين﴾ أي كل من هؤلاء الأنبياء من أهل الإحسان والصبر، جاهدوا في الله وصبروا على ما نالهم من الأذى ﴿وأدخلناهم في رحمتنا﴾ أي أدخلناهم بصبرهم وصلاحهم الجنة دار الرحمة والنعيم ﴿إنهم من الصالحين﴾ أي لأنهم من أهل الفضل والصلاح ﴿وذا النون﴾ أي واذكر لقومك قصة يونس الذي ابتلعه الحوت، والنونُ هو الحوتُ نُسب إليه لأنه التقمه ﴿إذ ذهب مغاضباً﴾ أي حين خرج من بلده مغاضباً لقومه إذ كان يدعوهم إلى الايمان فيكفرون حتى أصابه ضجر منهم فخرج عنهم ولذلك قال الله تعالى ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ ولا يصح قول من قال: مغاضباً لربه قال أبو حيان: وقولُ من قال مغاضباً لربه يجب طرحه إذ لا يناسب منصب النبوة[1] وقال الرازي: لا يجوز صرف المغاضبة إلى الله تعالى لأن ذلك صفة من يجهل كون الله مالكاً للأمر والنهي، والجاهلُ بالله لا يكون مؤمناً فضلاً عن أن يكون نبياً، ومغاضبتُه لقومه كانت غضباً لله، وأنفةً لدينه، وبغضاً للكفر وأهله[2] ﴿فظنَّ أنْ لن نقْدر عليه﴾ أي ظنَّ يونس أنْ لن نضيّق عليه بالعقوبة كقوله ﴿ومن قُدر عليه رزقُه﴾ أي ضُيّق عليه فيه فهو من القدر لا من القُدرة قال الإمام الفخر: من ظنَّ عجز الله فهو كافر، ولا خلاف أنه لا يجوز نسبة ذلك إلى آحاد المؤمنين فكيف إلى الأنبياء عليهم السلام! روي أنه دخل ابن عباس على معاوية فقال له معاوية: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقتُ فيها فلم أجدْ لي خلاصاً إلا بك، فقال: وما هي؟ قال: يظنُّ نبيُّ الله يونس أن لن يقدر الله عليه؟ فقال ابن عباس: هذا من القدْر لا من القُدرة[3] ﴿فنادى في الظلمات﴾ أي نادى ربه في ظلمة الليل وهو في بطن الحوت قال ابن عباس: جمعت الظلمات لأنها ظلمة الليل، وظلمةُ البحر، وظلمةُ بطن الحوت ﴿أن لا إله إلا أنت﴾ أي نادى بأن لا إله إلا أنت يا رب ﴿سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ أي تنزَّهت يا ربّ عن النقص والظلم، وقد كنتُ من الظالمين لنفسي وأنا الآن من التائبين النادمين فاكشفْ عني المحنة وفي الحديث (ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له)[4] ﴿فاستجبنا له ونجّيْناه من الغمّ﴾ أي استجبنا لتضرعه واستغاثته ونجيناه من الضيق والكرب الذي ناله حين التقمه الحوت ﴿وكذلك نُنْجي المؤمنين﴾ أي كما نجينا يونس من تلك المحنة ننجي المؤمنين من الشدائد والأهوال إذا استغاثوا بنا ﴿وزكريا إذ نادى ربَّه ربِّ لا تذرني فرداً﴾ أي واذكر يا محمد خبر رسولنا زكريا حين دعا ربه دعاء مخلص منيب قائلاً: ربّ لا تتركني وحيداً بلا ولد ولا وارث قال ابن عباس: كان سنُّه مائة وسنُّ زوجته تسعاً وتسعين[5] ﴿وأنت خير الوارثين﴾

(١) البحر ٦/ ٣٣٥ . (٢) تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢١٤ . (٣) الفخر الرازي ٢٢/ ٢١٥ . (٤) أصل الحديث في سنن أبي داود .
(٥) الرازي ٢٢/ ٢١٧ .

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

أي وأنت يا رب خير من يبقى بعد كل من يموت قال الألوسي: وفيه مدحٌ له تعالى بالبقاء ، وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء ، واستمطارٌ لسحائب لطفه عز وجل[1] ﴿فاستجبنا له﴾ أي أجبنا دعاءه ﴿ووهبنا له يحيى﴾ أي رزقناه ولداً اسمه يحيى على شيخوخته ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ أي جعلناها ولوداً بعد أن كانت عاقراً وقال ابن عباس : كانت سيئة الخُلُق طويلة اللسان فأصلحها الله تعالى فجعلها حسنة الخُلُق[2] ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾ أي إنما استجبنا دعاء من ذُكر من الأنبياء لأنهم كانوا صالحين يجدّون في طاعة الله ويتسابقون في فعل الطاعات وعمل الصالحات ﴿ويدعوننا رغباً ورَهباً﴾ أي طمعاً ورجاءً في رحمتنا وخوفاً وفزعاً من عذابنا ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ أي كانوا متذللين خاضعين لله يخافونه في السر والعلن ﴿والتي أحصنتْ فرْجها﴾ أي واذكر مريم البتول التي أعفت نفسها عن الفاحشة وعن الحلال والحرام كقوله ﴿لم يَمْسسني بشرٌ ولم أكُ بغياً﴾ قال ابن كثير : ذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى لأن تلك مربوطة بهذه فإنها إيجاد ولدٍ من شيخ كبير قد طعن في السن وامرأة عجوز لم تكن تلد في حال شبابها ، وهذه أعجب فإنها إيجاد ولدٍ من أنثى بلا ذكر ولذلك ذكر قصة مريم بعدها[3] ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ أي أمرنا جبريل فنفخ في فتحة درعها - قميصها - فدخلت النفخة إلى جوفها فحملت بعيسى ، وأضاف الروح إليه تعالى على جهة التشريف ﴿وجعلناها وابنها آيةً للعالمين﴾ أي وجعلنا مريم مع ولدها عيسى علامةً وأعجوبة للخلق تدل على قدرتنا الباهرة ليعتبر بها الناس ﴿إنَّ هذه أمتكم أمةً واحدة﴾ أي دينكم وملتكم التي يجب ان تكونوا عليها أيها الناس ملةٌ واحدة غير مختلفة وهي ملة الإسلام ، والأنبياء كلهم جاءوا برسالة التوحيد قال ابن عباس : معناه دينكم دينٌ واحد[4] ﴿وأنا ربكم فاعبدون﴾ أي وأنا إلهكم لا ربَّ سواي فأفردوني بالعبادة ﴿وتقطّعوا أمرهم بينهم﴾ أي اختلفوا في الدين وأصبحوا فيه شيعاً وأحزاباً فمن موحّد ، ومن يهودي ، ونصراني ومجوسّي ﴿كلٌ إلينا راجعون﴾ أي رجوعهم إلينا وحسابهم علينا قال الرازي : معنى الآية جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قِطعاً كما تتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه تمثيلاً لاختلافهم في الدين وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى[5] ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن﴾ أي من يعمل شيئاً من الطاعات وأعمال البرّ والخير بشرط الايمان ﴿فلا كُفْران لسَعيه﴾ أي لا بُطلان لثواب عمله ولا يضيع

(١) روح المعاني ١٧/ ٨٧ . (٢) القول الأول قول قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين كذا في القرطبي ١١/ ٣٣٦ .
(٣) المختصر ٢/ ٥٢٠ . (٤) نفس المرجع السابق والصفحة . (٥) تفسير الرازي ٢٢/ ٢١٩ .

وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

شيء من جزائه ﴿وإنا له كاتبون﴾ أي نكتب عمله في صحيفته والمراد أمر الملائكة بكتابة أعمال الخلق ﴿وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنَّهم لا يرجعون﴾ قال ابن عباس : أي ممتنعٌ على أهل قرية أهلكناهم أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا مرة ثانية وفي رواية عنه ﴿أنهم لا يرجعون﴾ أي لا يتوبون قال ابن كثير : والأول أظهر[1] وقال في البحر : المعنى وممتنع على أهل قرية قدرنا إهلاكهم لكفرهم رجوعهم في الدنيا إلى الإيمان إلى أن تقوم الساعة فحينئذٍ يرجعون[2] ﴿حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج﴾ أي حتى إذا فتح سدٌّ يأجوج ومأجوج ﴿وهم من كل حَدَبٍ ينْسلون﴾ أي وهم لكثرتهم من كل مرتفع من الأرض ومن كل أكمة وناحية يسرعون النزول والمرادُ أن يأجوج ومأجوج لكثرتهم يخرجون من كل طريق للفساد في الأرض ﴿واقترب الوعدُ الحقُّ﴾ أي اقترب وقت القيامة قال المفسرون : جعل الله خروج يأجوج ومأجوج علماً على قرب الساعة قال ابن مسعود : الساعةُ من الناس بعد يأجوج ومأجوج كالحامل المتمّم لا يدري أهلُها متى تفْجؤ هم بولدها ليلاً أو نهاراً[3] ﴿فإذا هي شاخصةٌ أبصار الذين كفروا﴾ الضمير للقصة والشأن أي فإذا شأن الكافرين أنَّ أبصارهم شاخصة من هول ذلك اليوم لا تكاد تطرف من الحيرة وشدة الفزع ﴿يا ويلنا قد كنا في غفلة﴾ أي ويقولون يا ويلنا أي يا حسرتنا وهلاكنا قد كنا في الدنيا في غفلةٍ تامة عن هذا المصير المشئوم واليوم الرهيب ﴿بل كنا ظالمين﴾ أضربوا عن القول السابق وأخبروا بالحقيقة المؤلمة والمعنى لم نكن في غفلةٍ حيث ذكَّرتنا الرسلُ ونبَّهتنا الآيات بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الإيمان ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ أي إنكم أيها المشركون وما تعبدونه من الأوثان والأصنام ﴿حَصَبُ جهنم﴾ أي حطب جهنم ووقودها قال أبو حيان : الحَصَب ما يحصَب به أي يُرمى به في نار جهنم ، وقبل أن يُرمى به لا يُطلق عليه حصبٌ إلا مجازاً[4] ﴿أنتم لها واردون﴾ أي أنتم داخلوها مع الأصنام ، وإنما جمع الله الكفار مع معبوداتهم في النار لزيادة غمِّهم وحسرتهم برؤيتهم الآلهة التي عبدوها معهم في عذاب الجحيم ﴿لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها﴾ أي لو كانت هذه الأصنام التي عبدتموها آلهةً ما دخلوا جهنم ﴿وكلٌّ فيها خالدون﴾ أي العابدون والمعبدون كلهم في جهنم مخلَّدون ﴿لهم فيها زفير﴾ أي لهؤلاء الكفرة في النار زفير وهو صوت النَّفس الذي يخرج من قلب المغموم وهو يشبه أنين المحزون والمكلوم ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾ أي لا يسمعون في

(١) المختصر ٢/ ٥٢١ . (٢) البحر ٦/ ٣٣٨ . (٣) زاد المسير ٥/ ٣٨٩ . (٤) البحر ٦/ ٣٤٠ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾

جهنم شيئاً لأنهم يُحشرون صُماً كما قال تعالى ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُمياً وبُكماً وصُماً﴾ قال القرطبي : وسماعُ الأشياء فيها روح وأُنس ، فمنع الله الكفار ذلك في النار[1] وقال ابن مسعود : إذا بقي من يُخلَّد في نار جهنم جعلوا في توابيت من نار ، فيها مسامير من نار فلا يسمعون شيئاً ، ولا يرى أحد منهم أنه يُعذَّب في النار غيره ثم تلا الآية[2] ﴿إنَّ الذين سبقت لهم منا الحُسنى﴾ أي سبقت لهم السعادة ﴿أولئك عنها مبعدون﴾ أي هم عن النار مبعدون لا يصلون حرَّها ولا يذوقون عذابها قال ابن عباس : أولئك أولياء الله يمرون على الصراط مراً أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثياً[3] ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ أي لا يسمعون حسَّ النار ولا حركة لهبها وصوتها ﴿وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون﴾ أي وهم في الجنة دائمون ، لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿لا يحزنهم الفزَعُ الأكبرُ﴾ أي لا تصيبهم أهوال يوم القيامة والبعث لأنهم في مأمنٍ منها ﴿وتتلقاهم الملائكة﴾ أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم قائلين ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ أي هذا يوم الكرامة والنعيم الذي وعدكم الله به فأبشروا بالهناء والسرور ﴿يوم نطوي السماءَ كطيِّ السِجلِّ للكتب﴾ أي اذكر يوم نطوي السماء طياً مثل طيّ الصحيفة على ما كتب فيها قال ابن عباس : كطيِّ الصحيفة على ما فيها ، فاللام بمعنى « على » ﴿كما بدأنا أولَ خلقٍ نُعيده﴾ أي نحشرهم حفاةً عُراةً غُرْلاً على الصورة التي بدأنا خلقهم فيها وفي الحديث (إنكم محشورون إلى الله حفاةً عُراةً غُرْلاً ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ ألاَ وإنَّ أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام[4] . .) الحديث ﴿وعداً علينا﴾ أي وعداً مؤكداً لا يُخلف ولا يبدَّل لازم علينا إنجازه والوفاء به ﴿إنا كنا فاعلين﴾ أي قادرين على ما نشاء ، وهو تأكيد لوقوع البعث ﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ أي سجلنا وسطرنا في الزبور المنزل على داود ﴿من بعد الذكر﴾ أي من بعد ما سطرنا في اللوح المحفوظ أزلاً ﴿أن الأرض يرثها عباديَ الصالحون﴾ أي أن الجنة يرثها المؤمنون الصالحون قال ابن كثير : أخبر سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ويُدخلهم الجنة وهم الصالحون[5] وقال القرطبي : أحسن ما قيل فيها أنه يراد بها أرض

(١) القرطبي ١١/ ٣٤٥ . (٢) القرطبي ١١/ ٣٤٥ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٢٣ . (٤) رواه مسلم عن ابن عباس .
(٥) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٢٤ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢)﴾

الجنة لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم وهو قول ابن عباس ومجاهد ويدل عليه قوله تعالى ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض﴾ وأكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد ﷺ [١] ، وقال مجاهد : الزبور : الكتب المنزلة ، والذكرُ أمُّ الكتاب عند الله[٢] ﴿إنَّ في هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾ أي إنَّ في هذا المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة لكفايةً لقوم خاضعين متذللين لله جل وعلا ، المؤثرين لطاعة الله على طاعة الشيطان ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إلا رحمة للخلق أجمعين وفي الحديث (إنما أنا رحمةٌ مهداة) [٣] فمن قَبِلَ هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة[٤] ﴿قل إنما يُوحى إليَّ أنما إلهكُم إله واحد﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إنما أوحى إليَّ ربي أنَّ إلهكم المستحق للعبادة إله واحد أحد فرد صمد ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ استفهام ومعناه الأمر أي فأسلموا له وانقادوا لحكمه وأمره ﴿فإن تولَّوا﴾ أي فإن أعرضوا عن الإسلام ﴿فقل آذنتكُم على سواء﴾ أي فقل لهم أعلمتكم بالحق على استواءٍ في الإعلام لم أخصَّ أحداً دون أحد ﴿وإنْ أدري أقريبٌ أم بعيد ما توعدون﴾ أي وما أدري متى يكون ذلك العذاب ؟ ولا متى يكون أجل الساعة ؟ فهو واقع لا محالة ولكنْ لا علم لي بقربه ولا ببعده ﴿إنه يعلم الجهرَ من القول ويعلم ما تكتمون﴾ أي اللهُ هو العالم الذي لا يخفى عليه شيء ، يعلم الظواهر والضمائر ، ويعلم السرَّ وأخفى ، وسيجازي كلاً بعمله ﴿وإن أدري لعله فتنةٌ لكم﴾ أي وما أدري لعل هذا الإمهال وتأخير عقوبتكم امتحانٌ لكم لنرى كيف صنيعكم ﴿ومتاعٌ إلى حين﴾ أي ولعلَّ هذا التأخير لتستمتعوا إلى زمنٍ معين ثم يأتيكم عذاب الله الأليم ﴿قال ربِّ احكم بالحق﴾ أي احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين وافصل بيننا بالحق ﴿وربُّنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ أي أستعين بالله على الصبر على ما تصفونه من الكفر والتكذيب . ختم السورة الكريمة بأمر النبي ﷺ بتفويض الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده ، فهو نعم الناصر ونعم المعين .

---

(١) القرطبي ١١/ ٣٤٩ . (٢) اختار هذا القول ابن جرير الطبري وهو قريب مما ذكرناه . (٣) أخرجه الحافظ ابن عساكر .

(٤) لم يقل الله تعالى : رحمةً للمؤمنين وإنما قال ﴿رحمةً للعالمين﴾ فإن الله سبحانه وتعالى رحم الخلق بإرسال سيد المرسلين ﷺ لأنه جاءهم بالسعادة الكبرى ، والنجاة من الشقاوة العظمى ، ونالوا على يديه الخيرات الكثيرة في الآخرة والأولى ، وعلمهم بعد الجهالة ، وهداهم بعد الضلالة فكان رحمةً للعالمين ، حتى الكفار رُحموا به حيث أخر عقوبتهم ولم يستأصلهم بالعذاب كالمسخ والخسف والغرق .

البَـــلاَغَـــة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ التعرض للرحمة بطريق التلطف ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ ولم يقل : ارحمني .

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿أرحم الراحمين﴾ .

٣ ـ الجناس الناقص ﴿الصابرين . . والصالحين﴾ .

٤ ـ الطباق بين ﴿رغباً . . ورهباً﴾ وبين ﴿بدأنا . . ونعيده﴾ وبين ﴿قريب أم بعيد﴾ .

٥ ـ التشريف ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ أضاف الروح إليه تعالى على جهة التشريف كقوله ﴿ناقة اللـه﴾ .

٦ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿وتقطَّعوا أمرهم بينهم﴾ مثَّل اختلافهم في الدين وتفرقهم فيه إلى شيع وأحزاب بالجماعة تتوزع الشيء لهذا نصيب ولهذا نصيب ، وهذا من لطيف الاستعارة .

٧ ـ الإيجاز بالحذف ﴿يا ويلنا﴾ أي ويقولون يا ويلنا ، ومثلُه قوله ﴿وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم﴾ أي تقول لهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون .

٨ ـ التشبيه المرسل المفصل ﴿نطوي السماءَ كطيِّ السِجِلِّ للكُتُب﴾ أي طياً مثل طيِّ الصحيفة على ما كتب فيها .

٩ ـ الاستفهام الذي يراد به الأمر ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي أسلموا .

١٠ ـ السجع ﴿فاعبدون ، راجعون ، كاتبون﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنبياء »

* * *



بين يدي السورة

* سورة الحج مدنية وهي تتناول جوانب التشريع ، شأنها شأن سائر السور المدنية التي تُعنى بأمور التشريع ، ومع أن السورة مدنية إلا أنه يغلب عليها جو السور المكية ، فموضوع الإيمان ، والتوحيد ، والإنذار والتخويف ، وموضوع البعث والجزاء ، ومشاهد القيامة وأهوالها ، هو البارز في السورة الكريمة ، حتى ليكاد يُخيل للقارىء أنها من السور المكية ، هذا إلى جانب الموضوعات التشريعية من الإذن بالقتال ، وأحكام الحج والهَدي ، والأمر بالجهاد في سبيل الله ، وغير ذلك من المواضيع التي هي من خصائص السور المدنية ، حتى لقد عدَّها بعض العلماء من السور المشتركة بين المدني والمكي .

* ابتدأت السورة الكريمة بمطلع عنيف مخيف ، ترتجف له القلوبُ ، وتطيش لهوله العقول ، ذلكم هو الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة ، ويزيد في الهول على خيال الإنسان ، لأنه لا يدك الدور والقصور فحسب ، بل يصل هولُه إلى المرضعات الذاهلات عن أطفالهن ، والحوامل المسقطات حملهن ، والناس الذين يترنحون كأنهم سكرى من الخمر ، وما بهم شيء من السكر والشراب ، ولكنه الموقف المرهوب ، الذي تتزلزل له القلوب ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم . .﴾ الآيات .

* ومن أهوال الساعة إلى أدلة البعث والنشور ، تنتقل السورة لتقيم الأدلة والبراهين على البعث بعد الفناء ، ثم الانتقال إلى دار الجزاء ، لينال الإنسان جزاءه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة ، حيث يكون الأبرار في دار النعيم ، والفجار في دار الجحيم .

* ثم انتقلت للحديث عن الحكمة من الإذن بقتال الكفار ، وتناولت الحديث عن القرى المدمرة بسبب ظلمها وطغيانها ، وذلك لبيان سنة الله في الدعوات ، وتطميناً للمسلمين بالعاقبة التي تنتظر الصابرين .

* وفي ختام السورة ضربت مثلاً لعبادة المشركين للأصنام ، وبيَّنت أن هذه المعبودات أعجز وأحقر

من ان تخلق ذبابة فضلاً عن أن تخلق إنساناً سميعاً بصيراً ، ودعت إلى اتباع ملة الخليل إبراهيم كهف الإيمان ، وركن التوحيد .

التسمية : سميت « سورة الحج » تخليداً لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام ، حين انتهى من بناء البيت العتيق ونادى الناس لحج بيت الله الحرام ، فتواضعت الجبال حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع نداؤه من في الأصلاب والأرحام وأجابوا النداء «لبيك اللهم لبيك» .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن

اللغة : ﴿زلزلة﴾ الزلزلة : شدة الحركة وأصل الكلمة من زلَّ عن الموضع أي زال عنه وتحرك ، وزلزل الله قدمه أي حركها ، وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشيء ﴿تذهل﴾ ذهل عن الشيء اشتغل عنه بشاغل من هم أو وجع أو غيره ﴿مضغة﴾ المضغة : اللحمة الصغيرة قدر ما يُمضغ ﴿مخلَّقة﴾ تامة الخِلْقة ﴿بهيج﴾ حسن سار للناظر ﴿عِطْفه﴾ العطف : الجانب ومنه قولهم : فلان ينظر في أعطافه أي في جوانبه ويسمى الرداء العِطاف والمعطف لأنه يوضع على الجانبين ﴿العشير﴾ الصاحب والخليل .

التفسير : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ خطاب لجميع البشر أي خافوا عذاب الله وأطيعوه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وجماع القول في التقوى هو : طاعةُ الله واجتناب محارمه ولهذا قال بعض العلماء : التقوى أن لا يراك حيث نهاك ، وأن لا يفقدك حيث أمرك ﴿إنَّ زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ تعليلٌ للأمر بالتقوى أي إن الزلزال الذي يكون بين يدي الساعة أمر عظيم وخطب جسيم لا يكاد يتصور لهوله ﴿يوم ترونها﴾ أي في ذلك اليوم العصيب الذي تشاهدون فيه تلك الزلزلة وترون هول مطلعها ﴿تذهل كلُّ مرضعة عما أرضعت﴾ أي تغفل.وتذهل ـ مع الدهشة وشدة الفزع ـ كل أنثى مرضعة عن رضيعها ، إذ تنزع ثديها من فم طفلها وتنشغل ـ لهول ما ترى ـ عن أحب الناس إليها وهو طفلها الرضيع ﴿وترى الناس سكارى﴾ أي تراهم كأنهم سكارى يترنحون ترنح السكران من هول ما يدركهم من الخوف والفزع ﴿وما هم بسكارى﴾ أي وما هم على الحقيقة بسكارى من الخمر ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ .استدراك لما دهاهم أي ليسوا بسكارى ولكن أهوال الساعة وشدائدها أطارت عقولهم وسلبت أفكارهم فهم من خوف عذاب الله مشفقون ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ أي وبعضٌ من الناس من يخاصم وينازع في قدرة الله وصفاته بغير دليل ولا برهان ويقول ما لا خير فيه من الأباطيل قال المفسرون : نزلت في النضر بن الحارث وكان جدلاً يقول الملائكة بناتُ الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا بعث بعد الموت قال أبو السعود : والآية عامة له ولأضرابه من العُتاة المتمردين[1] ﴿ويتبع كل شيطان

(١) إرشاد العقل السليم ٣/٤ .

﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾

مريد﴾ أي يطيع ويقتدي بكل عاتٍ متمرد كرؤساء الكفر الصادّين عن الحق ﴿كُتب عليه أنـه من تولاه﴾ أي حكم الله وقضى أنه من تولى الشيطان واتخذه ولياً ﴿فأنه يُضله ويهديـه إلى عذاب السعير﴾ أي فأن الشيطان يغويه ويسوقه إلى عذاب جهنم المستعرة ، وعبر بلفظ ﴿ويهديـه﴾ على سبيل التهكم ، ولما ذكر تعالى المجادلين في قدرة الله ، المنكرين للبعث والنشور ذكر دليلين واضحين على إمكان البعث أحدهما في الإنسان ، والثاني في النبات فقال ﴿يا أيهـا الناس إن كنتم في ريب من البعـث فإنّا خلقناكم من تـراب﴾ أي إن شككتم في قدرتنا على إحيائكم بعد موتكم فانظروا في أصل خلقكم ليزول ريبكم فقد خلقنا أصلكم « آدم » من التراب ، ومن قدر على خلقكم أول مرة قادر على أن يعيدكم ثاني مرة ، والذي قدر على إخراج النبات من الأرض ، بعد موتها قادر على أن يخرجكم من قبوركم ﴿ثم من نُطفـة﴾ أي ثم جعلنا نسله من المني الذي ينطف من صلب الرجل قال القرطبي : والنطف : القطر سمي نطفة لقلته[1] ﴿ثم من علقـة﴾ وهو الدم الجامد الذي يشبه العلقة التي تظهر حول الأحواض والمياه ﴿ثم من مضغـة﴾ أي من قطعة من لحم مقدار ما يمضغ ﴿مخلقـة وغير مخلقة﴾ أي مستبينة الخلق مصورة وغير مصورة قال ابن زيد : المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين ، وغير مخلقة التي لم يخلق فيها شيء ﴿لنبـين لكـم﴾ أي خلقناكم على هذا النموذج البديع لنبين لكم أسرار قدرتنا وحكمتنا قال الزمخشري : أي لنبين لكم بهذا التدريج قدرتنا ، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا ، ثم من نطفة ثانياً ، ولا تناسب بين التراب والماء ، وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاماً ، قادر على إعادة ما بـدأه ، بل هذا أدخل في القدرة وأهون في القياس[2] ﴿ونقر في الأرحـام ما نشـاء﴾ أي ونثبت من الحمل في أرحام الأمهات من أردنا أن نُقرَّه فيها حتى يتكامل خلقه ﴿إلى أجل مسمى﴾ أي إلى زمن معين هو وقت الوضع ﴿ثم نخرجكم طفـلاً﴾ أي ثم نخرج هذا الجنين طفلاً ضعيفاً في بدنـه وسمعـه وبصره وحواسه ، ثم نعطيه القوة شيئاً فشيئاً ﴿ثم لتبلغـوا أشـدكم﴾ أي كمال قوتـكم وعقلـكم ﴿ومنـكم من يتوفـى﴾ أي ومنكم من يموت في ريعان شبابه ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمـر﴾ أي ومنكم من يعمر حتى يصل إلى الشيخوخة والهرم وضعف القوة والخرف ﴿لكيلا يعلم من بعـد علم شيئـاً﴾ أي ليعود إلى ما كان عليه في أوان الطفولة من ضعف البنية ، وسخافة العقل ، وقلة الفهم ، فينسى ما علمه وينكر ما عرفه

(١) القرطبي ١٢/٦ . (٢) الكشاف ٣/١٤٢ .

هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ

ويعجز عما قدر عليه كما قال تعالى ﴿ومن نعمره ننكسه في الخلق﴾ ﴿وترى الأرض هامدة﴾ هذه هي الحجة الثانية على إمكان البعث أي وترى أيها المخاطب أو أيها المجادل الأرض يابسةً ميتة لا نبات فيها ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ أي فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وانتفخت وزادت وحييت بعد موتها ﴿وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ أي وأخرجت من كل صنفٍ عجيب ما يسر الناظر ببهائه ورونقه ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ أي ذلك المذكور من خلق الإنسان والنبات لتعلموا أن الله هو الخالق المدبر وأن ما في الكون من آثار قدرته وشاهد بأن الله هو الحق ﴿وأنه يحيي الموتى﴾ أي وبأنه القادر على إحياء الموتى كما أحيا الأرض الميتة بالنبات ﴿وأنه على كل شيء قدير﴾ أي وبأنه قادر على ما أراد ﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها﴾ أي وليعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿وأنَّ الله يبعث من في القبور﴾ أي يحيي الأموات ويعيدهم بعدما صاروا رمماً ، ويبعثهم أحياء إلى موقف الحساب ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ أي يجادل في شأنه تعالى من غير تمسك بعلمٍ صحيح يهدي إلى المعرفة ولا كتابٍ نير بيّن الحجة بل بمجرد الرأي والهوى قال ابن عطية : كرر هذه على وجه التوبيخ فكأنه يقول : هذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان ومن الناس مع ذلك من يجادل في الله بغير دليل ولا برهان[1] ﴿ثاني عطفه﴾ أي معرضاً عن الحق لاوياً عنقه كفراً قال ابن عباس: مستكبراً عن الحق إذا دُعي إليه قال الزمخشري: وثنيُ العطف عبارة عن الكبر والخيلاء فهو كتصعير الخد[2] ﴿ليضل عن سبيل الله﴾ أي ليصدَّ الناس عن دين الله وشرعه ﴿له في الدنيا خزيٌ﴾ أي له هوان وذل في الحياة الدنيا ﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾ أي ونذيقه في الآخرة النار المحرقة ﴿ذلك بما قدمت يداك﴾ أي ذلك الخزي والعذاب بسبب ما اقترفته من الكفر والضلال ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ أي وأن الله عادل لا يظلم أحداً من خلقه ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ أي ومن الناس من يعبد الله على جانب وطرفٍ من الدين ، وهذا تمثيلٌ للمذبذبين الذين لا يعبدون الله عن ثقة ويقين بل عن قلق واضطراب كالذي يكون على طرف من الجيش فان أحسَّ بظفر أو غنيمة استقر وإلا فرّ قال الحسن : هو المنافق يعبده بلسانه دون قلبه وقال ابن عباس : كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً وأنتجت خيله قال : هذا دين صالح ،

(١) البحر ٦/ ٣٥٤ . (٢) الكشاف ٣/ ١٤٤ .

عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء[1] ﴿فإن أصابه خيرٌ اطمأن بـه﴾ أي فإن ناله خير في حياته من صحةٍ ورخاء أقام على دينه ﴿وإن أصابتـه فتنة انقلب على وجهه﴾ أي وإن ناله شيء يفتتن به من مكروه وبلاء ارتد فرجع إلى ما كان عليه من الكفر ﴿خسـر الدنيا والآخـرة﴾ أي أضاع دنياه وآخرته فشقي الشقاوة الأبدية ﴿ذلك هو الخسـران المبين﴾ أي ذلك هو الخسران الواضح الذي لا خسران مثله ﴿يدعو من دون الله ما لا يضـره وما لا ينفعـه﴾ أي يعبد الصنم الذي لا ينفع ولا يضر ﴿ذلك هو الضـلال البعيـد﴾ أي ذلك هو نهاية الضلال الذي لا ضلال بعده ، شبه حالهم بحال من أبعد في التيه ضالاً عن الطريق ﴿يدعو لمن ضـره أقرب من نفعـه﴾ أي يعبد وثناً أو صنماً ضره في الدنيا بالخزي والذل أسرع من نفعه الذي يتوقعه بعبادته وهو الشفاعة له يوم القيامة ،وقيل: الآية على الفرض والتقدير :أي لو سلمنا نفعه أو ضره لكان ضره أكثر من نفعه[2] ، والآية سيقت تسفيهاً وتجهيلاً لمن يعتقد أنه ينتفع بعبادة غير الله حين يستشفـع بهـا ﴿لبئـس المولى ولبئس العشـير﴾ أي بئس الناصر وبئس القريب والصاحب ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾ لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين المذبذبين ذكر حال المؤمنين في الآخرة والمعنى إن الله يدخل المؤمنين الصادقين جنات تجري من تحت قصورها وغرفها أنهار اللبن والخمر والعسل وهم في روضات الجنات يحبرون ﴿إن الله يفعـل ما يريـد﴾ أي يثيب من يشـاء ويعذب من يشاء لا معقب لحكمه ، فللمؤمنين الجنة بفضله ، وللكافرين النار بعدله ﴿من كان يظن أن لن ينصـره الله في الدنيـا والآخرة﴾ أي من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله ﷺ في الـدنيا والآخـرة[3] ﴿فليمدد بسبب إلى السمـاء ثم ليقطـع﴾ أي فليمدد بحبل إلى السقف ثم ليقطع عنقه وليختنق به ﴿فلينظر هل يذهبـن كيده ما يغيـظ﴾ أي فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ ؟ قال ابن كثير : وهذا القول قول ابن عباس وهو أظهر في المعنى وأبلغ في التهكم فإن المعنى : من كان يظنُّ أنَّ الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه فإن الله ناصره لا محالة ﴿وكذلك أنزلناه آياتٍ بينـات﴾ أي ومثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحكم البالغة أنزلنا القرآن الكريم كله آيات واضحات

(١) القرطبي ١٢/ ١٧. (٢) البحر ٦/ ٣٥٦.

(٣) للمفسرين في معنى الآية قولان : الأول أن الضمير في « ينصره » للرسول ﷺ والمعنى على هذا : من كان من الكفار يظن أن لن ينصر الله محمداً فليختنق بحبل فإن الله ناصره لا بد ، وهذا ما رجحه ابن كثير ، والثاني أن الضمير يعود على الإنسان نفسه والمعنى : من ظن بسبب ضيق صدره وكثرة غمه أن لن ينصره الله فليختنق وليمت بغيظه ، وهذا ما رجحه صاحب التسهيل .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾

الدلالة على معانيها الرائقة ﴿وأنَّ اللهَ يهدي من يريد﴾ أي وأن الله هو الهادي لا هادي سواه يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي صدقوا الله ورسوله وهم أتباع محمد عليه السلام ﴿والذين هادوا﴾ أي اليهود وهم المتسبون إلى موسى عليه السلام ﴿والصابئين﴾ هم قوم يعبدون النجوم ﴿والنصارى﴾ هم المنتسبون إلى ملة عيسى عليه السلام ﴿والمجوس﴾ هم عبدة النيران ﴿والذين أشركوا﴾ هم العرب عبدة الأوثان ﴿إن الله يفصل بينهم يوم القيامة﴾ أي يقضي بين المؤمنين وبين الفرق الخمسة الضالة فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ﴿إن الله على كل شيء شهيد﴾ أي شاهد على أعمال خلقه عالم بكل ما يعملون ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض﴾ أي يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً ، الملائكة في أقطار السموات ، والإنس والجن وسائر المخلوقات في العالم الأرضي ﴿والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوابُّ﴾ أي وهذه الأجرام العظمى مع سائر الجبال والأشجار والحيوانات تسجد لعظمته سجود انقياد وخضوع ، قال ابن كثير : وخص الشمس والقمر والنجوم بالذكر لأنها قد عبدت من دون الله ، فبيّن أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة[١]. والغرض من الآية : بيان عظمته تعالى وانفراده بألوهيته وربوبيته بانقياد هذه العوالم العظمى له وجريها على وفق أمره وتدبيره ﴿وكثير من الناس﴾ أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ﴿وكثير حق عليه العذاب﴾ أي وكثير من الناس وجب له العذاب بكفره واستعصائه ﴿ومن يُهِن اللّهُ فما له من مكرم﴾ أي من أهانه الله بالشقاء والكفر فلا يقدر أحد على دفع الهوان عنه ﴿إن الله يفعَل ما يشاء﴾ أي يعذب ويرحم ، ويعز ويذل ، ويُغني ويُفقِر ، ولا اعتراض لأحد عليه .

البَــلاَغَــة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التشبيه البليغ المؤكد ﴿وترى الناس سكارى﴾ أي كالسكارى من شدة الهول ، حذفت أداة التشبيه والشبه .

٢ ـ الاستعارة ﴿شيطان مريد﴾ استعار لفظ الشيطان لكل طاغية متمرد على أمر الله .

٣ ـ الطباق بين ﴿يُضله . . . ويهديه﴾ .

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٣٤ .

٤ ـ أسلوب التهكم ﴿ويهديه إلى عذاب السعير﴾ .

٥ ـ طباق السلب ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ .

٦ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ شبه الأرض بنائم لا حركة له ثم يتحرك وينتعش وتدب فيه الحياة بنزول المطر عليه ففيها استعارة تبعية .

٧ ـ الكناية ﴿ثاني عطفه﴾ كناية عن التكبر والخيلاء .

٨ ـ المجاز المرسل ﴿بما قدمت يداك﴾ علاقته السببية لأن اليد هي التي تفعل الخير أو الشر .

٩ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿من يعبد الله على حرف﴾ مثل للمنافقين وما هم فيه من قلق واضطراب في دينهم بمن يقف على شفا الهاوية يريد العبادة والصلاة ، ويا له من تمثيل رائع !

١٠ ـ المقابلة البديعة بين ﴿فإن أصابه خير اطمأن به . . وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه﴾ .

١١ ـ الطباق بين ﴿يضره . . . وينفعه﴾ وبين ﴿يهن . . فماله من مكرم﴾ .

١٢ ـ السجع اللطيف بين كثير من الآيات .

فَـائِـدَة : المُرضع التي شأنها أن ترضع ، والمرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها لطفلها ولهذا قال ﴿تذهل كل مرضعة﴾ ولم يقل : مرضع ليكون ذلك أعظم في الذهول إذ تنزع ثديها من فم الصبي ـ أحب الناس إليها ـ وذلك غاية في شدة الهول والفزع .

روى ابن أبي حاتم أنه قيل لعلي: « إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة فاستدعاه فقال له ، يا عبد الله : خلقك كما يشاء أو كما تشاء ؟ قال بل كما شاء ، قال : فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ، قل : بل إذا شاء ، قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء ؟ قال : بل حيث يشاء ، قال والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي بين عينيك بالسيف »[1] .

* * *

قال الله تعالى :﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم . . إلى . . لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين﴾

من آية (١٩) إلى نهاية آية (٣٧) .

المُنَاسَبَة : لما ذكر تعالى أهل السعادة وأهل الشقاوة ، ذكر هنا ما دار بينهم من الخصومة في دينه وعبادته ، ثم ذكر عظم حرمة البيت العتيق وبناء الخليل له ، وعظم كفر هؤلاء المشركين الذين يصدون الناس عن سبيل الله والمسجد الحرام .

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٣٥.

اللغَــة : ﴿يُصهر﴾ الصهر : الإذابة صهرت الشيء فانصهر أي أذبته فذاب ﴿مقامع﴾ المقامع : السياط جمع مقمعة سميت بذلك لأنها تقمع الفاجر ﴿العاكف﴾ المقيم الملازم ﴿الباد﴾ القادم من البادية ﴿بوأنا﴾ أنزلنا وهيأنا وأرشدنا ﴿رجالاً﴾ جمع راجل وهو الماشي على قدميه ﴿ضامر﴾ الضامر : البعير المهزول الذي أتعبه السفر ﴿تفثهم﴾ التفث في اللغة : الوسخ والقذر قال الشاعر[1] :

حفـوا رءوسهـم لم يحلقـوا تفثاً ولـم يسلُّـوا لهـم قمـلاً وصئباناً

قال الثعلبي : أصل التفث في اللغة الوسخ ، تقول العرب للرجل تستقذره : ما أتفثك أي ما أوسخك وأقذرك[2] ﴿المخبتين﴾ المخبت : المتواضع الخاشع لله .

* هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟

التفسِيــر : ﴿هذان خصمـان﴾ أي هذان فريقان مختصمان فريق المؤمنين المتقين ، وفريق الكفرة المجرمين ﴿اختصموا في ربهم﴾ أي اختلفوا وتنازعوا من أجـل اللـه ودينـه قال مجاهـد : هم المؤمنـون والكافرون ، فالمؤمنون يريدون نصرة دين الله ، والكافرون يريدون إطفاء نور الله ﴿فالـذين كفـروا قطعت لهم ثيـاب من نار﴾ أي فصلت لهم ثيابٌ من نار على قدر أجسادهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار قال القرطبي : شبهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب ومعنى ﴿قطعت﴾ خيطت وسويت ، وذكر بلفظ الماضي لأن الموعود منه كالواقع المحقق[3] ﴿يصب من فوق رءوسهم الحميـم﴾ أي يصب على رءوسهم الماء الحار المغلي بنار جهنم ﴿يصهر به ما في بطونهم والجلـود﴾ أي يذاب به ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء مع الجلود قال ابن عباس : لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها وفي الحديث (إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما في جوفـه حتـى يمـرق من قدميه وهـو الصهر ، ثم يعاد كما كان)[4] قال الإمام الفخر : والغرض أن الحميم إذا صب على رءوسهم كان تأثيره في الباطن مثل تأثيره في الظاهر ، فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله ﴿وسقوا ماء حمياً فقطع أمعاءهم﴾[5] ﴿ولهم مقامـع من حديـد﴾ أي ولهم مطارق وسياط من الحديد يضربون بها ويدفعون وفي الحديث (لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها)[6] ﴿كلما أرادوا أن يخرجـوا منها من غـم أعيدوا فيهـا﴾ أي كلما أراد اهل النار الخروج من النار من شدة غمها ردوا إلى أماكنهم فيها قال الحسن : إن النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً[7] ﴿وذوقوا عـذاب الحريق﴾ أي يقال لهم : ذوقوا عذاب جهنم المحرق الذي

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت كذا في القرطبي ١٢/ ٥٠ . (٢) القرطبي ١٢/ ٥٠ . (٣) القرطبي ١٢/ ٢٦ . (٤) أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح غريب . (٥) تفسير الرازي ٢٣/ ٢٢ . (٦) أخرجه أحمد . (٧) تفسير الرازي ٢٣/ ٢٢ .

مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ

كنتم به تكذبون ، ولما ذكر تعالى ما أعد للكفار من العذاب والدمار ، ذكر ما أعده للمؤمنين من الثواب والنعيم فقال ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي يدخل المؤمنين الصالحين في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار العظيمة المتنوعة ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب﴾ أي تلبسهم الملائكة في الجنة الأساور الذهبية كحلية وزينة يتزينون بها ﴿ولؤلؤاً﴾ أي ويحلون باللؤلؤ كذلك إكراماً من الله لهم ﴿ولباسهم فيها حرير﴾ أي ولباسهم في الجنة الحرير ، ولكنه أعلى وأرفع مما في الدنيا بكثير ﴿وهدوا إلى الطيب من القول﴾ أي أرشدوا إلى الكلام الطيب والقول النافع إذ ليس في الجنة لغوٌ ولا كذب ﴿وهدوا إلى صراط الحميد﴾ أي إلى صراط الله وهو الجنة دار المتقين ، ثم عدد تعالى بعض جرائم المشركين فقال ﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام﴾ أي جحدوا بما جاء به محمد عليه السلام ويمنعون المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام لأداء المناسك فيه قال القرطبي : وذلك حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عام الحديبية[1] ، وإنما قال ﴿ويصدون﴾ بصيغة المضارع ليدل على الاستمرار فكأن المعنى : إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله ونظيره قوله ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ ﴿الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد﴾ أي الذي جعلناه منسكاً ومتعبداً للناس جميعاً سواء فيه المقيم الحاضر ، والذي يأتيه من خارج البلاد ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ أي ومن يرد فيه سوءاً أو ميلاً عن القصد أو يهم فيه بمعصية ﴿نذقه من عذاب أليم﴾ أي نذقه أشد أنواع العذاب الموجع قال ابن مسعود : لو أن رجلاً بِعدَنَ همَّ بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً وقال مجاهد : تُضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات[2] ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ أي واذكر حين أرشدنا إبراهيم وألهمناه مكان البيت ﴿أن لا تشرك بي شيئاً﴾ أي أمرناه ببناء البيت العتيق خالصاً لله قال ابن كثير : أي ابنه على اسمي وحدي[3] ﴿وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ أي طهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يعبد الله فيه بالطواف والصلاة قال القرطبي : والقائمون هم المصلون ، ذكر تعالى من أركان الصلاة أعظمها وهو القيام والركوع والسجود[4] ﴿وأذِّنْ في الناس بالحج﴾ أي وناد في الناس داعياً لهم لحج بيت الله العتيق قال ابن عباس : لما فرغ إبراهيم

(١) القرطبي ١٢/ ٣١ . (٢) تفسير الرازي ٢٣/ ٢٥ . (٣) المختصر ٢/ ٥٣٩ . (٤) القرطبي ١٢/ ٣٧ .

يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ

من بناء البيت قيل له : أذن في الناس بالحج ، قال يا رب : وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذن وعلي الإبلاغ فصعد إبراهيم على جبل أبي قبيس وصاح : يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة ، ويجيركم من عذاب النار فحجوا ، فأجابه من كان في أصلاب الرجال ، وأرحام النساء : لبيك اللهم لبيك[١] ﴿يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر﴾ أي يأتوك مشاة على أقدامهم أو ركباناً على كل جمل هزيل قد أتعبه وأنهكه بعد المسافة ﴿يأتين من كل فج عميق﴾ أي تأتي الإبل الضامرة من كل طريق بعيد قال القرطبي : ورد الضمير إلى الإبل ﴿يأتين﴾ تكرمةً لها لقصدها الحج مع أربابها كما قال ﴿والعاديات ضبحاً﴾ في خيل الجهاد تكرمةً لها حين سعت في سبيل الله[٢] ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ أي ليحضروا منافع لهم كثيرة دينية ودنيوية قال الفخر الرازي : وإنما نكّر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات[٣] ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ أي ويذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله في أيام النحر شكراً لله على نعمائه وعلى ما رزقهم وملكهم من الأنعام وهي : الإبل والبقر والغنم والمعز قال الرازي : وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي ذكر اسمه تعالى عند الذبح وأن يخالف المشركين في ذلك فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان[٤] ﴿فكلوا منها﴾ أي كلوا من لحوم الأضاحي ﴿وأطعموا البائس الفقير﴾ أي أطعموا منها البائس الذي أصابه بؤس وشدة ، والفقير الذي أضعفه الإعسار قال ابن عباس : البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه ، والفقير الذي لا يكون كذلك ، ثيابه نقية ووجهه وجه غني ﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾ أي ثم بعد الذبح ليزيلوا وسخهم الذي أصابهم بالإحرام وذلك بالحلق والتقصير وإزالة الشعث وقص الشارب والأظافر ﴿وليوفوا نذورهم﴾ أي ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر طاعةً لله ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ أي ليطوفوا حول البيت العتيق طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة الذي به تمام التحلل ، والعتيق : القديم سمي به لأنه أول بيت وضع للناس ﴿ذلك﴾ أي الأمر والشأن ذلك قال الزمخشري : كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوضَ في معنى آخر قال : هذا وقد كان كذا[٥] ﴿ومن يعظم حرمات الله﴾ أي من يعظم ما شرعه الله من أحكام الدين ويجتنب المعاصي والمحارم ﴿فهو خير له عند ربه﴾ أي ذلك التعظيم خير له ثواباً في الآخرة ﴿وأُحِلَّت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾ أي أحللنا لكم جميع الأنعام إلا ما استثني في الكتاب المجيد كالميتة والمنخنقة وما ذبح لغير الله وغير ذلك ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس ، وهو غاية المبالغة في النهي عن عبادتها وتعظيمها

(١) الرازي ٢٣/٢٧ . (٢) القرطبي ١٢/٣٩ . (٣) تفسير الرازي ٢٣/٢٩ . (٤) الرازي ٢٣/٢٩ . (٥) الكشاف ٣

إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا

﴿**واجتنبوا قول الزور**﴾ أي واجتنبوا شهادة الزور ﴿**حنفاء لله غير مشركين به**﴾ أي مائلين إلى الحق مسلمين لله غير مشركين به أحداً ﴿**ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير**﴾ تمثيل للمشرك في ضلاله وهلاكه أي ومن أشرك بالله فكأنما سقط من السماء فتخطفه الطير وتمزقه كل ممزق ﴿**أو تهوي به الريح في مكانٍ سحيق**﴾ أي أوعصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة ﴿**ذلك ومن يعظم شعائر الله**﴾ أي ذلك ما وضحه الله لكم من الأحكام والأمثال ومن يعظم أمور الدين ومنها أعمالُ الحج والأضاحي والهدايا ﴿**فإنها من تقوى القلوب**﴾ أي فإن تعظيمها من أفعال المتقين لله قال القرطبي : أضاف التقوى الى القلوب لأن حقيقة التقوى في القلب وفي الحديث (التقوى ههنا) وأشار إلى صدره[1] ﴿**لكم فيها منافع إلى أجل مسمى**﴾ أي لكم في الهدايا منافع كثيرة من الدر والنسل والركوب إلى وقت نحرها ﴿**ثم محلها إلى البيت العتيق**﴾ أي ثم مكان ذبحها في الحرم بمكة أو منى ، وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم كقوله تعالى ﴿**هدياً بالغ الكعبة**﴾ ﴿**ولكل أمةٍ جعلنا منسكاً**﴾ أي شرعنا لكل أُمة من الأمم السابقة من عهد إبراهيم مكاناً للذبح تقرباً لله قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل ﴿**ليذكروا اسم الله**﴾ أي أمرناهم عند الذبح أن يذكروا اسم الله وأن يذبحوا لوجهه تعالى ﴿**على ما رزقهم من بهيمة الأنعام**﴾ أي شكراً لله على ما أنعم به عليهم من بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم ، بين تعالى أنه يجب أن يكون الذبح لوجهه تعالى وعلى اسمه لأنه هو الخالق الرازق لا كما كان المشركون يذبحون للأوثان ﴿**فإلهكم إلهٌ واحد**﴾ أي فربكم أيها الناس ومعبودكم إله واحد لا شريك له ﴿**فله أسلموا**﴾ أي فأخلصوا له العبادة واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿**وبشر المخبتين**﴾ أي بشر المطيعين المتواضعين الخاشعين بجنات النعيم ، ثم وصف تعالى المخبتين بأربع صفات فقال ﴿**الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**﴾ أي إذا ذكر الله خافت وارتعشت لذكره قلوبهم لإشراق أشعة جلاله عليها فكأنهم بين يديه واقفون ، ولجلاله وعظمته مشاهدون ﴿**والصابرين على ما أصابهم**﴾ أي يصبرون في السراء والضراء على الأمراض والمصائب والمحن وسائر المكاره ﴿**والمقيمي الصلاة**﴾ أي الذين يؤدونها في أوقاتها مستقيمةً كاملة مع الخشوع والخضوع ﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ أي ومن بعض الذي رزقناهم من

(١) القرطبي ١٢/ ٥٦ .

رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

فضلنا ينفقون في وجوه الخيرات ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله﴾ أي والإبل السمينة ـ سميت بدناً لبدانتها وضخامة أجسامها ـ جعلناها من أعلام الشريعة التي شرعها الله لعباده قال ابن كثير : وكونها من شعائر الدين أنها تُهدى إلى بيته الحرام بل هي أفضل ما يهدى[1] ﴿لكم فيها خير﴾ قال ابن عباس : نفعٌ في الدنيا وأجرٌ في الآخرة ﴿فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾ أي اذكروا عند ذبحها اسم الله الجليل عليها حال كونها صواف أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿فإذا وجبت جنوبُها﴾ أي فإذا سقطت على الأرض بعد نحرها ، وهو كنايةٌ عن الموت ﴿فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر﴾ أي كلوا من هذه الهدايا وأطعموا القانع أي المتعفف والمعتر أي السائل قاله ابن عباس[2] ، وقال الرازي : الأقرب أن القانع هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح ، والمعتر هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال[3] ﴿كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون﴾ أي مثل ذلك التسخير البديع جعلناها منقادة لكم مع ضخامة أجسامها لكي تشكروا الله على إنعامه ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها﴾ أي لن يصل إليه تعالى شيء من لحومها ولا دمائها ﴿ولكن يناله التقوى منكم﴾ أي ولكن يصل إليه التقوى منكم بامتثالكم أوامره وطلبكم رضوانه ﴿كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم﴾ أي كرره للتأكيد أي كذلك ذللها لكم وجعلها منقادة لرغبتكم لتكبروا الله على ما أرشدكم إليه من أحكام دينه ﴿وبشر المحسنين﴾ أي بشر المحسنين في أعمالهم بالسعادة والفوز بدار النعيم .

البَــلاَغَــة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإيجاز ﴿اختصموا في ربهم﴾ أي في دين ربهم فهو على حذف مضاف .

٢ ـ الاستعارة ﴿قطعت لهم ثياب من نار﴾ استعارة عن إحاطة النار بهم كما يحيط الثوب بلابسه .

٣ ـ الطباق بين ﴿العاكف . . والباد﴾ لأن العاكف المقيم في المدينة والباد القادم من البادية .

٤ ـ التأكيد بإعادة الفصل ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾ للعناية بشأن كل استقلالاً ، ويسمى في علم البديع الإطناب .

---

(١) المختصر ٢/ ٥٤٤. (٢) وهو قول قتادة والنخعي ومجاهد وكثير من السلف. (٣) الرازي ٢٣/ ٣٦.

٥ ـ التشبيه التمثيلي ﴿ومن يشـرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفـه الطير﴾ لأن وجه الشبه منتزعٌ من متعدد .
٦ ـ الجناس الناقص ﴿وجبت جنوبها﴾ .
٧ ـ الطباق بين ﴿القانع والمعتر﴾ لأنه القانع المتعفف والمعتر السائل .
٨ ـ السجع اللطيف مثل ﴿عميق ، سحيق ، العتيق﴾ ومثل ﴿المحسنين ، المخبتين﴾ .

تـنبيـه : لم يؤ اخذ الله تعالى أحداً من خلقه على الهم بالمعصية إلا في المسجد الحرام ﴿ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلم نذقه من عذاب اليم﴾ لأنه المكان المقدس الذي يجب أن يكون فيه الإنسان نقي القلب ، طاهر النفس ، صافي السريرة ، خالصاً بكليته لله ، فمن ينتهـك حرمـة الملك في حمـاه جدير بالجحيم والعذاب الأليم .

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن الله يدافع عن الـذين آمنـوا . . إلى . . وإن الله هو العلي الكبير﴾ من آية (٣٨) إلى نهاية آية (٦٢) .

المنَـاسَـبَة : لما بيَّن تعالى مناسك الحج وما فيه من منافع الدنيا والآخرة ، وذكر أن الكفار صدوا المؤمنين عن دين الله وعن دخول مكة ، بيَّن هنا أنه يدافع عن المؤمنين وذكر الحكمة من مشروعية القتال ومنها الدفاع عن المقدسات ، وحماية المستضعفين ، وتمكين المؤمنين من عبادة الله تعالى .

اللغَـة : ﴿صوامع﴾ جمع صومعة وهي البناء المرتفع وهي مختصة بالرهبان ﴿بيع﴾ جمع بيعة وهي كنيسة النصارى ﴿وصلوات﴾ كنائس اليهود وقال الزجاج : وهي بالعبرانية صَلُوتا ﴿نكير﴾ مصدر بمعنى الإنكار قال الجوهري : النكيرُ والإنكارُ تغيير المنكر ﴿معطلة﴾ متروكة وتعطيل الشيء إبطال منافعه ﴿مشيد﴾ مرفوع البنيان .

* إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ

التفسِـير : ﴿إنَّ الله يدافـع عن الذين آمنـوا﴾ أي ينصر المؤمنين ويدفع عنهم بأس المشـركين ، وهذه بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار وكـفـٌ كيدهم عنهـم ﴿إنَّ الله لا يحـبُّ كل خوان كفور﴾ أي إنه تعالى يبغض كل خائنٍ للأمانة جاحدٍ نعمة الله ﴿أُذِنَ للذين يُقاتلون بأنهـم ظلمـوا﴾ فيه محذوف تقديره : أُذن لهم في القتال بسبب أنهم ظُلموا قال ابن عباس : هذه أول آيةٍ نزلت في الجهاد قال المفسرون : هم أصحابُ رسول الله ﷺ كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً وكانوا يأتون رسول الله ﷺ بين مضروب ومشجوح ويتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فاني لم أومر بقتالهم حتى هاجروا فأُنزلت هذه الآية وهي أول آيةٍ أُذن فيها بالقتال بعدما نهي عنه في أكثر من سبعين آية ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ أي هو تعالى قادر على نصر عباده من غير قتال ولكنه يريد منهم أن يبذلوا جهدهم في طاعته لينالوا أجر الشهداء ﴿الذين

﴿ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ﴾

﴿أُخرجوا من ديارهم بغير حق﴾ أي أُخرجوا من أوطانهم ظلماً وعدواناً بغير سبب موجب للإخراج قال ابن عباس : يعني محمداً وأصحابه أُخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق ﴿إلاّ أن يقولوا ربنا الله﴾ أي ما كان لهم إساءة ولا ذنب إلا أنهم وحدوا الله ولم يشركوا به أحداً ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ أي لولا ما شرعه الله من الجهاد وقتال الأعداء لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان وتعطلت الشعائر ولكنه تعالى دفع شرهم بأن أمر بقتالهم ﴿لهدمت صوامعُ وبيعٌ﴾ أي لتهدمت معابد الرهبان وكنائس النصارى ﴿وصلواتٌ﴾ أي كنائس اليهود ﴿ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ أي ومساجد المسلمين التي يعبد فيها الله بكرة وأصيلاً ، ومعنى الآية أنه لولا كفُّه تعالى المشركين بالمسلمين ، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمانهم فهدموا موضع عباداتهم ، ولم يتركوا للنصارى بيعاً ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود كنائس ، ولا للمسلمين مساجد ، ولغلب المشركون أهل الأديان ، وإنما خص المساجد بهذا الوصف ﴿يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ تعظيماً لها وتشريفاً لأنها أماكن العبادة الحقة ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ قسمٌ أي والله سينصر الله من ينصر دينه ورسوله ﴿إنَّ الله لقويٌ عزيز﴾ أي إنه تعالى قادر لا يعجزه شيء ، عزيزٌ لا يُقهر ولا يغلب قال ابن كثير : وصف نفسه بالقوة والعزة ، فبقوته خلق كل شيء ، وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب[1] ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ قال ابن عباس : هم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان ، والمعنى : هؤلاء الذين يستحقون نصرة الله هم الذين إن جعلنا لهم سلطاناً في الأرض وتملكاً واستعلاء عبدوا الله وحافظوا على الصلاة وأداء الزكاة ﴿وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ أي دعوا إلى الخير ونهوا عن الشر ﴿ولله عاقبة الأمور﴾ أي مرجع الأمور إلى حكمه تعالى وتقديره ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود﴾ تسلية للرسول ﷺ ووعيد للمشركين أي إن كذبك أهل مكة فاعلم أنك لست أول رسول يكذبه قومه فقد كان قبلك أنبياء كُذبوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذبين ، فاقتد بهم واصبر ﴿وقوم إبراهيم وقومُ لوطٍ وأصحاب مدين﴾ أي وكذب كذلك قوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب ﴿وكُذب موسى﴾ أي وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته ، وعظم معجزاته فما ظنك بغيره ؟ ﴿فأمليتُ

(١) المختصر ٢/٥٤٨.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾

للكافرين ثم أخذتهم﴾ أي أمهلتهم ثم أخذتهم بالعقوبة **﴿فكيف كان نكير﴾** استفهام تقريري أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب ألم يكن أليماً ؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة ، وبالكثرة قلة ، وبالعمارة خراباً ؟ فكذلك أفعل بالمكذبين من أهل مكة **﴿فكأين من قرية أهلكناها﴾** أي كم من قرية أهلكنا أهلها بالعذاب الشامل **﴿وهي ظالمة﴾** أي وهي مشركة كافرة **﴿فهي خاويةٌ على عروشها﴾** أي خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف فهي خربة مهدمة **﴿وبئر معطلة﴾** أي وكم من بئر عطلت فتركت لا يستقى منها لهلاك أهلها **﴿وقصر مشيد﴾** أي وكم من قصر مرفوع البنيان أصبح خالياً بلا ساكن ، أليس في ذلك عبرة للمعتبر ؟ **﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها﴾** أي أفلم يسافر أهل مكة ليشاهدوا مصارع الكفار فيعتبروا بما حل بهم من النكال والدمار !! وهلاّ عقلوا ما يجب ان يُعقل من الإيمان والتوحيد ! **﴿أو آذان يسمعون بها﴾** أي أو تكون لهم آذانٌ يسمعون بها المواعظ والزواجر **﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾** أي ليس العمى على الحقيقة عمى البصر ، وإنما العمى عمى البصيرة فمن كان أعمى القلب لا يعتبر ولا يتدبر ، وذِكرُ الصدور للتأكيد ونفي توهم المجاز **﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده﴾** أي ويستعجلك يا محمد هؤلاء المشركون بالعذاب استهزاءً ، وإن ذلك واقع لا محالة ، لكن لوقوعه أجل لا يتعداه لأنه تعالى لا يخلف الميعاد **﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾** أي هو تعالى حليم لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه فلِم إذاً يستبعدونه ويستعجلون العذاب ؟ ولهذا قال بعد ذلك **﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة﴾** أي وكثير من أهل قرية أخرت إهلاكهم وأمهلتهم مع استمرارهم على الظلم فاغتروا بذلك التأخير **﴿ثم أخذتها وإلي المصير﴾** أي ثم أخذتهم بالعذاب بعد طول الإمهال وإليَّ المرجع والمآب قال في البحر : لما كان تعالى قد أمهل قريشاً حتى استعجلت بالعذاب ذكر الآية تنبيهاً على أن السابقين أُمهلوا ثم أُهلكوا وأن قريشاً وإن أملى تعالى لهم وأمهلهم فإنه لا بد من عذابهم فلا يفرحوا بتأخير العذاب عنهم[1] **﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾** أي قل يا محمد لهؤلاء المستعجلين للعذاب إنما أنا منذر لكم أخوفكم عذاب الله وأنذركم إنذاراً بيناً من غير أن يكون لي دخلٌ في تعجيل العذاب أو

(١) البحر ٦/ ٣٧٩.

وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ

تأخيره ﴿فالذين آمنـوا وعملوا الصالحـات لهم مغفرة ورزقٌ كريـم﴾ أي فالمؤمنون الصادقون الذين جمعوا بين الإِيمان والعمل الصالح لهم عند ربهم مغفرة لذنوبهم ورزق كريم في جنان النعيم قال الرازي : بين سبحانه أن من جمع بينهما فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم[1] وقال القرطبي : إذا سمعت الله تعالى يقول ﴿ورزقٌ كريـم﴾ فاعلم أنه الجنة[2] ﴿والذين سعوا في آياتنـا معاجزيـن﴾ أي كذبـوا بآياتنـا وسعوا في إبطالها مغالبين مشاقين يريدون إطفاء نور الله ﴿أولئـك أصحـاب الجحيـم﴾ أي فأولئـك هم أصحاب النار الحارة الموجعة ، الشديد عذابها ونكالها ، شبههم من حيث الدوام بالصاحب قال الرازي : فإن قيل : إنه عليه السلام بشر المؤمنين أولاً ، وأنذر الكافرين ثانياً في هذه الآية فكان القياس أن يقال ﴿إنما أنا لكـم بشير ونذيـر﴾ والجواب أن الكلام مسوق إلى المشركين وهم الـذين استعجلـوا العـذاب و ﴿أيهـا الناس﴾ نداءٌ لهم ، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهـم زيادة لغيظهم وإيذائهم[3] ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبـيّ﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمداً رسولاً ولا نبياً ﴿إلا إذا تمنَّى﴾ أي إلا إذا أحبَّ شيئاً وهويته نفسه ﴿ألقـى الشيطانَ في أمنيتـه﴾ أي ألقى الشيطان فيما يشتهيه ويتمناه بعض الوساوس التـي توجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام (إنه ليُغان على قلبـي فأستغفر الله في اليوم سبعين مـرة) قال الفراء : تمنى إذا حدَّث نفسه وفي البخاري : قال ابن عباس : « إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيتـه » إلا إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته ، ويقـال : أمنيتـه : قراءته[4] قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل في الآية وأجله ، ومعنى الآية : وما أرسلنا رسولاً ولا نبياً فحدث نفسه بشيء وتمنى لأمته الهداية والإِيمان إلا ألقى الشيطان الوساوس والعقبات في طريقه بتـزيين الكفر لقومه وإلقائه في نفوسهم مخالفةً لأمر الرسول وكأنَّ الآية تسلية للرسول ﷺ تقول له : لا تحزن يا محمد على معاداة قومك لك فهذه سنة المرسلين[5] ﴿فينسخ الله ما يلقـي الشيطان﴾ أي يزيل ويبطل الله ما يلقيه الشيطان من الوساوس والأوهام ﴿ثم يحْكم الله آياته﴾ أي يثبت في نفس الرسول آياته الدالة على

---

(١) الرازي ٢٣/ ٤٧ . (٢) المختصر ٢/ ٥٥٠ . (٣) الرازي ٢٣/ ٤٧ . (٤) انظر صحيح البخاري كتاب التفسير . (٥) هذا أصح ما قيل في تفسير الآية وهو اختيار المحققين من المفسرين ، وأما قصة الغرانيق التي أولع بذكرها بعض المفسرين فهي باطلة مردودة ، وهي أن الرسول عليه السلام قرأ سورة ﴿والنجم إذا هـوى﴾ بمحضر من المشركين والمسلمين فلما بلغ ﴿أفرأيتم اللات والعزى* ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان على لسانه « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » ففرح بذلك المشركون ولما انتهى من السورة سجد وسجد معه المشركون الخ قال ابن العربي : إن جميع ما ورد في هذه القصة باطل لا أصل له وقال ابن إسحاق : هي من وضع الزنادقة وقال البيهقي : رواتها مطعون فيهم وقال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق وهي روايات مرسلات ومنقطعات لا تصح وقال القاضي عياض : هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون ، المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم . أقول : مما يدل على بطلان القصة قوله تعالى في نفس السورة ﴿وما ينطق عن الهوى* إن هو إلا وحي يوحى﴾ فكيف نطق المعصوم بمثل هذا الذي يزعمونه ! سبحانك هذا بهتان عظيم وانظر الرد القاطع في تفسير الفخر الرازي .

حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟

الوحدانية والرسالة ﴿**والله عليم حكيم**﴾ أي مبالغٌ في العلم حكيم يضع الأشياء في مواضعها قال أبو السعود : وفي الآية دلالةٌ على جواز السهو من الأنبياء عليهم السلام، وتطرق الوسوسة إليهم[1] ﴿**ليجعل ما يلقي الشيطان**﴾ أي ليجعل تلك الشبه والوساوس التي يلقيها الشيطان ﴿**فتنةً للذين في قلوبهم مرض**﴾ أي فتنة للمنافقين الذين في قلوبهم شك وارتياب ﴿**والقاسية قلوبهم**﴾ أي وفتنةً للكافرين الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله ، وهم خواص من الكفار عتاةٌ كأبي جهل ، والنضر ، وعتبة ﴿**وإن الظالمين لفي شقاق بعيد**﴾ أي وإن هؤلاء المذكورين من المنافقين والمشركين لفي عداوة شديدة لله ولرسوله ، ووصف الشقاق بلفظ ﴿**بعيد**﴾ لأنه في غاية الضلال والبعدِ عن الخير ﴿**وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك**﴾ أي وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق النازل من عند الله تعالى ﴿**فيؤمنوا به**﴾ أي يؤمنوا بهذا القرآن ﴿**فتخبت له قلوبهم**﴾ أي تخشع وتسكن له قلوبهم بخلاف من في قلبه مرض ﴿**وإنَّ الله لهادي الذين آمنوا إلى صراطٍ مستقيم**﴾ أي مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم ومنقذهم من الضلالة والغواية ﴿**ولا يزال الذين كفروا في مِرْيةٍ منه**﴾ أي ولا يزال هؤلاء المشركون في شك وريب من هذا القرآن ﴿**حتى تأتيهم الساعة بغتة**﴾ أي حتى تأتيهم الساعة فجأة دون أن يشعروا قال قتادة : ما أخذ الله قوماً قطُّ إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون ﴿**أو يأتيهم عذاب يوم عقيم**﴾ أي أو يأتيهم عذاب يوم القيامة وسمي عقيماً لأنه لا يوم بعده قال أبو السعود : كأنَّ كل يوم يلد ما بعده من الأيام ، فما لا يوم بعده يكون عقيماً ، والمراد به الساعة أيضاً كأنه قيل : أو يأتيهم عذابها ، ووضع ذلك موضع الضمير لمزيد التهويل[2] ﴿**المُلْك يومئذ لله**﴾ أي الملك يوم القيامة لله وحده لا منازع له فيه ولا مدافع ﴿**يحكم بينهم**﴾ أي يفصل بين عباده بالعدل ، فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ولهذا قال ﴿**فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم**﴾ أي فالذين صدقوا الله ورسوله وفعلوا صالح الأعمال لهم النعيم المقيم في جنات الخلد ﴿**والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذابٌ مهين**﴾ أي والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله لهم العذاب المخزي مع الإهانة والتحقير في دار الجحيم ﴿**والذين هاجروا في سبيل الله**﴾ أي تركوا الأوطان والديار ابتغاء مرضاة الله وجاهدوا لإعلاء كلمة الله ﴿**ثم قُتلوا أو**

(١) أبو السعود ٤/ ١٨ . (٢) أبو السعود ٤/ ١٩ .

﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ * ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

ماتـوا﴾ أي قتلوا في الجهاد أو ماتوا على فرشهم ﴿ليرزقنهم الله رزقاً حسنـاً﴾ أي ليعطينهم نعيماً خالداً لا ينقطع أبداً وهو نعيـم الجنة ﴿وإنَّ الله لهو خيـر الرازقين﴾ أي هو تعالى خير من أعطى فإنه يرزق بغير حساب ﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونـه﴾ أي ليدخلنهم مكاناً يرضبونه وهو الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿وإن الله لعليـم حليـم﴾ أي عليم بدرجات العاملين حليم عن عقابهم ﴿ذلك ومن عاقب بمثـل ما عوقب بـه﴾ أي جازى الظالم بمثل ما ظلمه ﴿ثم بُغِيَ عليه لينصرنه الله﴾ أي ثم اعتدى الظالم عليه ثانياً لينصرن الله ذلك المظلوم ﴿إن الله لعفـوٌ غفور﴾ أي مبالـغ في العفـو والغفران ، وفيه تعريض بالحث على العفو والصفح ، فإنه تعالى مع كمال قدرته على الانتقام يعفو ويغفر فغيره أولى بذلك ﴿ذلك بأن الله يولج الليل في النهـار ويولج النهار في الليـل﴾ أي ذلك النصر بسبب أن الله قادر ، ومن آيات قدرته إيلاج الليل في النهار أي أنه يدخل كلاً منهما في الآخر . بأن ينقص من الليل فيزيد في النهار وبالعكس وهذا مشاهد ملموس في الصيف والشتاء ﴿وأن الله سميـعٌ بصير﴾ أي سميع لأقوال عباده بصير بأحوالهم لا تخفى عليه خافية ﴿ذلك بأن الله هو الحـق﴾ أي ذلك بأن الله هو الإِله الحق ﴿وأن ما يدعون من دونه الباطـل﴾ أي وأن الذي يدعوه المشركون من الأصنام والأوثان هو الباطل الذي لا يقدر على شيء ﴿وأنَّ الله هو العلـي الكبير﴾ أي هو العالي على كل شيء ذو العظمة والكبرياء فلا أعلى منه ولا أكبر .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيـات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ صيغة المبالغة ﴿خوَّان كفـور﴾ لأن فعال وفعول من صيغ المبالغة .

٢ ـ الحذف لدلالة السياق عليه ﴿أُذن للذيـن يقاتلون﴾ أي أُذن بالقتال للذين يقاتلون .

٣ ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿إلا أن يقولـوا ربنا اللـه﴾ أي لا ذنب لهم إلا هذا .

٤ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿فالذين آمنـوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريـم﴾ وبين ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحـاب الجحيم﴾ .

٥ ـ جناس الاشتقاق ﴿وما أرسلنا من رسـول﴾ .

٦ ـ الطباق بين ﴿ينسخ . . ثم يحكم﴾ .

٧ ـ الاستعارة البديعة ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ وهذا من أحسن الاستعارات لأن العقيم المرأة التي لا تلد ، فكأنه سبحانه وصف ذلك اليوم بأنه لا ليل بعده ولا نهار لأن الزمان قد مضى ، والتكليف قد انقضى ، فجعلت الأيام بمنزلة الولدان لليالي ، وجعل ذلك اليوم من بينها عقيماً على طريق الاستعارة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً . . إلى . . فنعم المولى ونعم النصير﴾ من آية (٦٣) إلى آية (٧٨) نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى ما دلَّ على قدرته الباهرة من إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ونبه به على نعمه ، أتبعه هنا بأنواع أخر من الدلائل على قدرته وحكمته ، وجعلها كالمقدمة لإثبات البعث والمعاد ، وختم السورة بدعوة المؤمنين إلى عبادة الله الواحد الأحد .

اللغة : ﴿سلطاناً﴾ حجة وبرهاناً ﴿يسطون﴾ يبطشون ، والسطوة : القهر وشدة البطش يقال : سطا يسطو إذا بطش به ﴿يسلبهم﴾ سلب الشيء : اختطفه بسرعة ﴿قدروا﴾ عظموا ﴿يصطفي﴾ يجتبي ويختار ﴿حرج﴾ ضيق ﴿ملة﴾ الملة : الدين .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ

التفسير : ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء﴾ استفهام تقريري أي ألم تعلم أيها السامع أن الله بقدرته أنزل من السحاب المطر ؟ ﴿فتصبح الأرض مخضرة﴾ أي فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد يبسها ومحولها ، وجاء بصيغة المضارع ﴿فتصبح﴾ لاستحضار الصورة وإفادة بقائها كذلك مدة من الزمن ﴿إن الله لطيفٌ خبير﴾ قال ابن عباس : لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط ، والغرض من الآية إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشور فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت ولهذا قال ﴿وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي جميع ما في الكون ملكه جل وعلا ، خلقاً وملكاً وتصرفاً ، والكل محتاج إلى تدبيره وإتقانه ﴿وإنَّ الله لهو الغني الحميد﴾ أي هو تعالى غني عن الأشياء كلها لا يحتاج لأحد ، وهو المحمود في كل حال ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ تذكير بنعمة أُخرى أي ألم تر أيها العاقل أن الله سخر لعباده جميع ما يحتاجون إليه من الحيوانات والأشجار والأنهار والمعادن ﴿والفُلك تجري في البحر بأمره﴾ أي وسخر السفن العظيمة المثقلة بالأحمال والرجال تسير في البحر لمصالحكم بقدرته ومشيئته ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ أي ويمسك

﴿الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ﴾

بقدرته السماء كي لا تقع على الأرض فيهلك من فيها ﴿إلاَّ بإذنه﴾ أي إلا إذا شاء وذلك عند قيام الساعة ﴿إنَّ الله بالناس لرءوف رحيم﴾ أي وذلك من لطفه بكم ورحمته لكم حيث هيأ لكم أسباب المعاش فاشكروا آلاءه ﴿وهو الذي أحياكم﴾ أي أحياكم بعد أن كنتم عدماً ﴿ثم يميتكم﴾أي يميتكم عند انتهاء آجالكم﴿ثم يحييكم﴾ أي بعد موتكم للحساب والثواب والعقاب ﴿إنَّ الإنسان لكفور﴾ أي مبالغ في الجحود لنعم الله قال ابن عباس : المراد بالإنسان الكافر والغرض من الآيات توبيخ المشركين كأنه يقول : كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف !! ﴿لكل أمةٍ جعلنا منسكاً﴾ أي لكل نبي من الأنبياء وأمةٍ من الأمم السابقين وضعنا لهم شريعة ومتعبداً ومنهاجاً[1] كقوله ﴿لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً﴾ ﴿هم ناسكوه﴾ أي هم عاملون به أي بذلك الشرع ﴿فلا ينازعنك في الأمر﴾ أي لا ينازعك أحدٌ من المشركين فيما شرعتُ لك ولأمتك فقد كانت الشرائع في كل عصر وزمان ، وهو نهيٌ يراد به النفي أي لا ينبغي منازعةُ النبي ﷺ لأن الحق قد ظهر بحيث لا يسع النزاع فيه ﴿وادعُ إلى ربك﴾ أي أدعُ الناس إلى عبادة ربك وإلى شريعته السمحة المطهرة ﴿إنك لعلى هدى مستقيم﴾ أي فإنك على طريق واضحٍ مستقيم، موصل إلى جنات النعيم ﴿وإن جادلوك فقل اللهُ أعلم بما تعملون﴾ أي وإن خاصموك بعد ظهور الحق وقيام الحجة عليهم فقل لهم : الله أعلم بأعمالكم القبيحة وبما تستحقون عليها من الجزاء، وهذا وعيد وإنذار ﴿الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ أي الله يفصل في الآخرة بين المؤمنين والكافرين فيما كانوا فيه يختلفون من أمر الدين ، فيعرفون حينئذٍ الحق من الباطل ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾ الاستفهام تقريري أي لقد علمت يا محمد أنَّ الله أحاط علمه بما في السماء والأرض فلا تخفى عليه أعمالهم ﴿إنَّ ذلك في كتاب﴾ أي إن ذلك كله مسطر في اللوح المحفوظ﴿إنَّ ذلك على الله يسير﴾أي إن حصر المخلوقات تحت علمه وإحاطته سهلٌ عليه يسيرٌ لديه ثم بيَّن سبحانه ما يقدم عليه الكفار مع عظيم نعمه ، ووضوح دلائله فقال ﴿ويعبدون من دون الله﴾ أي ويعبد كفار قريش غير الله تعالى أصناماً لا تنفع ولا تسمع ﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي ما لم يرد به حجة ولا برهان من جهة الوحي والشرع ﴿وما ليس لهم به علم﴾ أي وما ليس عندهم به علم من جهة العقل وإنما هو مجرد التقليد الأعمى للآباء ﴿وما للظالمين من نصير﴾ أي ليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله

(١) قال ابن عباس : المَنْسك : الشريعةُ والمنهاج ، قال الرازي : وهو الأقرب هنا .

لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ

﴿وإذا تُتْلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي وإذا تليت على هؤلاء المشركين آيات القرآن الواضحة الساطعة وما فيها من الحجج القاطعة على وحدانية الله ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾ أي ترى في وجوه الكفار الإنكار بالعبوس والكراهة ﴿يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾ أي يكادون يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم القرآن ﴿قل أفأنبئكم بشرٍ من ذلكم النارُ﴾ أي قل لهم : هل أخبركم بما هو أسوأ أو أشنع من تخويفكم للمؤمنين وبطشكم بهم ؟ إنه نار جهنم وعذابها ونكالها ﴿وعدها الله الذين كفروا﴾ أي وعدها الله للكافرين المكذبين بآياته ﴿وبئس المصير﴾ أي بئس الموضع الذي يصيرون إليه ﴿يا أيها الناس ضرب مثلٌ فاستمعوا له﴾ أي يا معشر المشركين ضرب الله مثلاً لما يعبد من دون الله من الأوثان والأصنام فتدبروه حق التدبر واعقلوا ما يقال لكم ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ أي إنَّ هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها وإن اجتمعت على ذلك ، فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة وعبادتها من دون الله ! قال القرطبي : وخص الذباب لأربعة أمور : لمهانته ، وضعفه ، ولاستقذاره ، وكثرته ، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوهم من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته ، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين ، وأرباباً مطاعين ؟ وهذا من أقوى الحجة وأوضح البرهان[1] ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾ أي لو اختطف الذباب وسلب شيئاً من الطيب الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه منه رغم ضعفه وحقارته ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ أي ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم ، والمطلوب الذي هو الصنم ، فكل منهما حقير ضعيف[2] ﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا الأصنام - على حقارتها - شركاء للقوي العزيز ولهذا قال ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ أي هو تعالى قادر لا يعجزه شيء ، غالب لا يغلب ، فكيف يسوون بين القوي العزيز والعاجز الحقير ؟ ! ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ أي الله يختار رسلاً من الملائكة ليكونوا وسطاء لتبليغ الوحي إلى أنبيائه ، ويختار رسلاً من البشر لتبليغ شرائع الدين لعباده ، والآية ردٌّ على من أنكر أن يكون الرسول

(١) القرطبي ١٢/٩٧ . (٢) قال ابن عباس : الطالب الصنمُ ، والمطلوبُ الذباب ، وقال السديُّ : الطالب العابد ، والمطلوب الصنم نفسه وهذا هو الراجح وهو الذي اخترناه .

بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

من البشر ﴿إنَّ الله سميع بصير﴾ أي يسمع ما يقولون ويرى ما يفعلون ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي يعلم ما قدموا وما أخَّروا من الأفعال والأقوال والأعمال ﴿وإلى الله تُرجع الأمور﴾ أي إليه وحده جل وعلا ترد أمور العباد فيجازيهم عليها ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا﴾ أي صلوا لربكم خاشعين ، وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما أشرف أركان الصلاة ﴿واعبدوا ربكم﴾ أي أفردوه بالعبادة ولا تعبدوا غيره ﴿وافعلوا الخير﴾ أي افعلوا ما يقربكم من الله من أنواع الخيرات والمبرات كصلة الأرحام ، ومواساة الأيتام ، والصلاة بالليل والناس نيام ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي لتفوزوا وتظفروا بنعيم الآخرة ﴿وجاهدوا في الله حقَّ جهاده﴾ أي جاهدوا بأموالكم وأنفسكم لإعلاء كلمة الله حقَّ الجهاد باستفراغ الوسع والطاقة ﴿هو اجتباكم﴾ أي هو اختاركم من بين الأمم لنصرة دينه، وخصكم بأكمل شرع وأكرم رسول ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ أي وما جعل عليكم في هذا الدين من ضيق ولا مشقة ، ولا كلفكم مالا تطيقون بل هي الحنيفية السمحة ولهذا قال ﴿ملَّة أبيكم إبراهيم﴾ أي دينكم الذي لا حرج فيه هو دين ابراهيم فالزموه لأنه الدين القيم كقوله ﴿ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً﴾ ﴿هو سمَّاكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾ أي الله[1] سماكم المسلمين في الكتب المتقدمة وفي هذا القرآن ، ورضي لكم الإسلام ديناً قال الإمام الفخر : المعنى أنه سبحانه في سائر الكتب المتقدمة على القرآن ، وفي القرآن أيضاً بيَّن فضلكم على الأمم وسمَّاكم بهذا الاسم الأكرم ، لأجل الشهادة المذكورة ، فلما خصكم بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ أي ليشهد عليكم الرسول بتبليغه الرسالة لكم وتشهدوا أنتم على الخلائق أنَّ رسلهم قد بلَّغتهم ﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي وإذْ قد اختاركم الله لهذه المرتبة الجليلة فاشكروا الله على نعمته بأداء الصلاة ودفع الزكاة ﴿واعتصموا بالله﴾ أي استمسكوا بحبله المتين وثقوا واستعينوا بالله في جميع أموركم ﴿فنعم المولى ونعم النصير﴾ أي نعم هو تعالى الناصر والمعين .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد وهو الظاهر ، وقال الحسن : الضمير يعود على إبراهيم ، وهذا قولٌ مرجوح والله أعلم .

١ ـ الامتنان بتعداد النعم ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ، والفلك تجري . .﴾ الخ وكذلك الاستفهام الذي يفيد التقرير .

٢ ـ الطباق ﴿يُميتكم ثم يحييكم﴾ .

٣ ـ صيغة المبالغة ﴿إنَّ الانسان لكفور﴾ أي مبالغ في الجحود .

٤ ـ النهي الذي يراد منه نفي الشيء ﴿فلا ينازعنك﴾ أي لا ينبغي لهم منازعتك فقد ظهر الحق وبان .

٥ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾ أي تستدل من وجوههم على المكروه وإرادة الفعل القبيح مثل قولهم : عرفت في وجه فلان الشر .

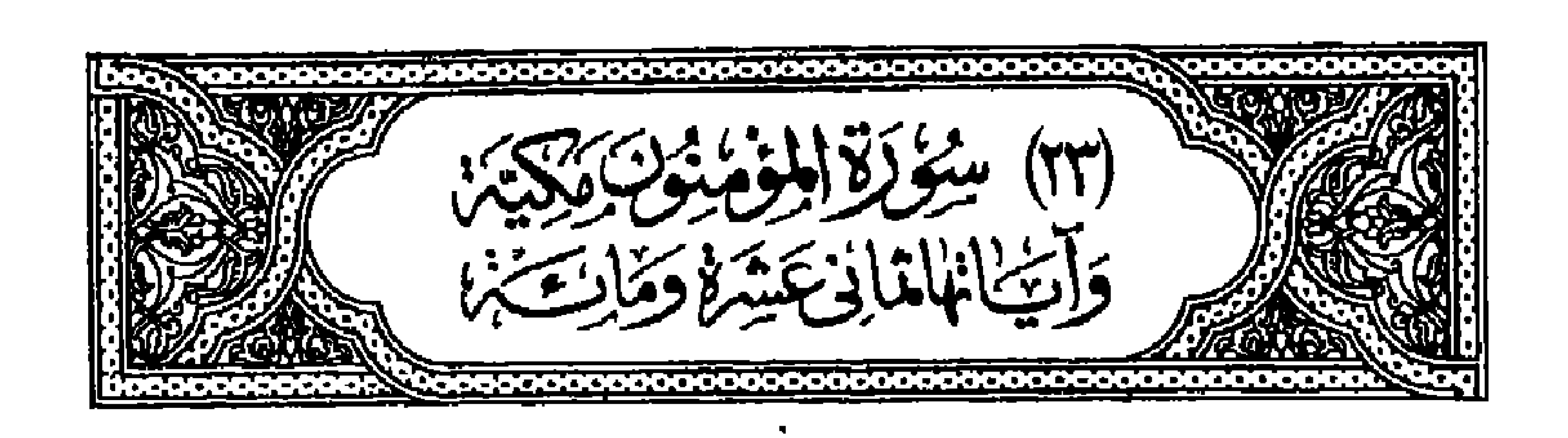
٦ ـ التمثيل الرائع ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً﴾ أي مثل الكفار في عبادتهم لغير الله كمثل الأصنام التي لا تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة قال الزمخشري : سميت القصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال .

٧ ـ المجاز المرسل ﴿اركعوا واسجدوا﴾ من إطلاق الجزء على الكل أي صلوا لأن الركوع والسجود من أركان الصلاة .

٨ ـ ذكر العام بعد الخاص لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص ﴿اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير﴾ بدأ بخاص ، ثم بعام ، ثم بأعم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحج » .

* * *



بين يدي السورة

* سورة « المؤمنون » من السور المكية التي تعالج أصول الدين من « التوحيد والرسالة ، والبعث » سميت بهذا الاسم الجليل « المؤمنون » تخليداً لهم وإشادةً بمآثرهم وفضائلهم الكريمة التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في جنات النعيم .

* عرضت السورة الكريمة لدلائل القدرة والوحدانية مصورة في هذا الكون العجيب ، في الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، ثم في خلق السموات البديعة ذات الطرائق ، وفي الآيات الكونية المنبثة فيما يشاهده الناس في العالم المنظور من أنواع النخيل والأعناب ، والزيتون والرمان ، والفواكه والثمار ، والسفن الكبيرة التي تمخر عباب البحار ، وغير ذلك من الآيات الكونية الدالة على وجود الله جل وعلا .

* وقد عرضت السورة لقصص بعض الأنبياء تسلية لرسول الله ﷺ عمّا يلقاه من أذى المشركين ، فذكرت قصة نوح ، ثم قصة هود ، ثم قصة موسى ، ثم قصة مريم البتول وولدها عيسى ، ثم عرضت لكفار مكة وعنادهم ومكابرتهم للحق بعدما سطع سطوع الشمس في رابعة النهار ، وأقامت الحجج والبراهين على البعث والنشور ، وهو المحور الذي تدور عليه السورة ، وأهم ما يجادل فيه المبطلون ، فقصمت ببيانها الساطع ظهر الباطل .

* وتحدثت السورة عن الأهوال والشدائد التي يلقاها الكفار وقت الاحتضار وهم في سكرات الموت ، وقد تمنوا العودة الى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من صالح العمل ، ولكن هيهات فقد انتهى الأجل ، وضاع الأمل . وختمت السورة بالحديث عن يوم القيامة حيث ينقسم الناس الى فريقين : سعداء ، وأشقياء ، وينقطع الحسب والنسب فلا ينفع إلا الايمان والعمل الصالح ، وسجلت المحاورة بين الملك الجبار وبين أهل النار وهم يصطرخون فيها فلا يغاثون ولا يجابون ! !

* * *

قال الله تعالى : ﴿قد أفلح المؤمنون . . إلى . . وعليها وعلى الفلك تحملون﴾

من آية (١) إلى نهاية آية (٢٢) .

اللغــة : ﴿سلالة﴾ السُّلالة : الخلاصة مشتقة من السَّل وهو استخراج الشيء من الشيء ، تقول : سللت الشَّعر من العجين ، والسيف من الغمد قال أمية :

خلـق البـريَّة من سلالـة منتـن وإلى السُّلالـة كلُّهـا ستعود[١]

ويقال : الولد سلالة أبيه لأنه انسلَّ من ظهر أبيه ﴿مكين﴾ ثابت راسخ تقول : هذا شيء مكين أي متمكن في الثبوت والرسوخ ﴿طرائق﴾ جمع طريقة والمراد بالطرائق السموات السبع سميت بذلك لكون بعضها فوق بعض ، ومنه قولهم : طارق النعل إذا جعل إحداهما على الأخرى ﴿صبغ﴾ الصبغ : الإدام وأصله الصباغ وهو الذي يلون به الثوب قال الهروي : كل إدام يؤتدم به فهو صبغ ﴿الأنعام﴾ الحيوانات المأكولة «الإبل ، والبقر ، والغنم» .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾

التفسير : ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ أي فاز وسعد وحصل على البغية والمطلوب المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة ، و﴿قد﴾ للتأكيد والتحقيق فكأنه يقول لقد تحقَّق ظفرهم ونجاحهم بسبب الإيمان والعمل الصالح ، ثم عدَّد تعالى مناقبهم فقال ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قال ابن عباس : خاشعون : خائفون ساكنون أي هم خائفون متذللون في صلاتهم لجلال الله وعظمته لاستيلاء الهيبة على قلوبهم ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ أي عن الكذب والشتم والهزل قال ابن كثير: اللغو: الباطل وهو يشمل الشرك ، والمعاصي ، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال[٢] ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ أي يؤدون زكاة أموالهم للفقراء والمساكين ، طيبة بها نفوسهم طلباً لرضى الله ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ هذا هو الوصف الرابع أي عفُّوا عن الحرام وصانوا فروجهم عمّا لا يحل من الزنا واللواط وكشف العورات ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ أي هم حافظون لفروجهم في جميع الأحوال إلا من زوجاتهم وإمائهم المملوكات ﴿فإنهم غير ملومين﴾ أي فإنهم غير مؤاخذين ﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾ أي فمن طلب غير الزوجات والمملوكات ﴿فأولئك هم العادون﴾ أي هم المعتدون المجاوزون الحدَّ في البغي والفساد ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي قائمون عليها بحفظها وإصلاحها ، لا يخونون إذا ائتمنوا ، ولا ينقضون عهدهم إذا عاهدوا قال أبو حيان : والظاهر عموم الأمانات فيدخل فيها ما ائتمن الله تعالى عليه العبد من قولٍ وفعلٍ واعتقاد ، وما ائتمنه الإنسان من الودائع والأمانات[٣] ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ هذا هو الوصف السادس أي يواظبون على الصلوات الخمس

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٩٣ . (٢) ابن كثير المختصر ٢/ ٥٥٩ . (٣) البحر ٦/ ٣٩٧ .

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ

ويؤدونها في أوقاتها قال في التسهيل : فإن قيل كيف كرّر ذكر الصلوات أولاً وآخراً ؟ فالجواب أنه ليس بتكرار ، لأنه قد ذكر أولاً الخشوع فيها ، وذكر هنا المحافظة عليها فهما مختلفان[1] ﴿أولئك هم الوارثون﴾ أي أولئك الجامعون لهذه الأوصاف الجليلة هم الجديرون بوراثة جنة النعيم ﴿الذين يرثون الفردوس﴾ أي الذين يرثون أعالي الجنة التي تتفجر منها أنهار الجنة وفي الحديث (إذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة)[2] ﴿هم فيها خالدون﴾ أي هم دائمون فيها لا يخرجون منها أبداً ، ولا يبغون عنها حولاً . . ثم ذكر تعالى الأدلة والبراهين على قدرته ووحدانيته فقال ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين﴾ اللام جواب قسم أي والله لقد خلقنا جنس الإنسان من صفوة وخلاصة استلت من الطين قال ابن عباس : هو آدم لأنه انسلَّ من الطين ﴿ثم جعلناه نطفة﴾ أي ثم جعلنا ذرية آدم وبنيه منياً ينطف من أصلاب الرجال ﴿في قرار مكين﴾ أي في مستقر متمكن هو الرحم ﴿ثم خلقنا النُّطفة علقةً﴾ أي ثم صيَّرنا هذه النطفة ـ وهي الماء الدافق ـ دماً جامداً يشبه العلقة ﴿فخلقنا العلقة مُضغة﴾ أي جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي قطعة لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿فخلقنا المُضغة عظاماً﴾ أي صيَّرنا قطعة اللحم عظاماً صلبة لتكون عموداً للبدن ﴿فكسونا العظام لحماً﴾ أي سترنا تلك العظام باللحم وجعلناه كالكسوة لها ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ أي ثم بعد تلك الأطوار نفخنا فيه الروح فصيرناه خلقاً آخر في أحسن تقويم قال الرازي : أي جعلناه خلقاً مبايناً للخلق الأول حيث صار إنساناً وكان جماداً ، وناطقاً وكان أبكم ، وسميعاً وكان أصم ، وبصيراً وكان أكمه ، وأودع كل عضو من أعضائه عجائب فطرة ، وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين[3]. ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ أي فتعالى الله في قدرته وحكمته أحسن الصانعين صنعاً ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميّتون﴾ أي ثم إنكم أيها الناس بعد تلك النشأة والحياة لصائرون الى الموت ﴿ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون﴾ أي تبعثون من قبوركم للحساب والمجازاة ، ولما ذكر تعالى الأطوار في خلق الإنسان وبدايته ونهايته ذكر خلق السموات والأرض وكلها أدلة ساطعة على وجود الله فقال ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾ أي والله لقد خلقنا فوقكم سبع سموات ، سميت طرائق لأن بعضها فوق بعض ﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾ أي وما كنا مهملين أمر الخلق بل نحفظهم وندبر أمرهم ﴿وأنزلنا من السماء

(١) التسهيل ٣/ ٤٩ . (٢) أخرجه مسلم . (٣) الفخر الرازي ٢٣/ ٨٥ .

غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

ماءً بقدر﴾ أي أنزلنا من السحاب القطر والمطر بحسب الحاجة ، لا كثيراً فيفسد الأرض ، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار ﴿فأسكنَّاه في الأرض﴾ أي جعلناه ثابتاً مستقراً في الأرض لتنتفعوا به وقت الحاجة ﴿وإنَّا على ذهابٍ به لقادرون﴾ وعيدٌ وتهديدٌ أي ونحن قادرون على إذهابه بالتغوير في الأرض فتهلكون عطشاً أنتم ومواشيكم قال ابن كثير : لو شئنا لجعلناه إذا نزل يغور في الأرض إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا ، ولكن بلطفه تعالى ورحمته ينزل عليكم المطر من السحاب عذباً فراتاً ، فيسكنه في الأرض ، ويسلكه ينابيع فيها فيفتح العيون والأنهار ، ويسقى الزروع والثمار ، فتشربون منه أنتم ودوابكم وأنعامكم[1] ﴿فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب﴾ أي فأخرجنا لكم بذلك الماء حدائق وبساتين فيها النخيل والأعناب ﴿لكم فيها فواكه كثيرة﴾ أي لكم في هذه البساتين أنواع الفواكه والثمار تتفكهون بها ﴿ومنها تأكلون﴾ أي ومن ثمر الجنات تأكلون صيفاً وشتاءً كالرطب والعنب والتمر والزبيب ، وإنما خصَّ النخيل والأعناب بالذكر لكثرة منافعهما فإنهما يقومان مقام الطعام ، ومقام الإدام ، ومقام الفواكه رطباً ويابساً وهما أكثر فواكه العرب ﴿وشجرةً تخرج من طور سيناء﴾ أي وممَّا أنشأنا لكم بالماء أيضاً شجرة الزيتون التي تخرج حول جبل الطور وهو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى ﴿تنْبُتُ بالدهن﴾ أي تُنبت الدهن أي الزيت الذي فيه منافع عظيمة ﴿وصبغ للآكلين﴾ أي وإدام للآكلين سمي صبغاً لأنه يلون الخبز اذا غُمس فيه ، جمع الله في هذه الشجرة بين الأُدم والدهن ، وفي الحديث (كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرةٍ مباركة)[2] ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾ أي وإن لكم أيها الناس فيما خلق لكم ربكم من الأنعام وهي «الإبل والبقر والغنم» لعظةً بالغةً تعتبرون بها ﴿نسقيكم مما في بطونها﴾ أي نسقيكم من ألبانها من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾ أي ولكم في هذه الأنعام منافع عديدة : تشربون من ألبانها ، وتلبسون من أصوافها وتركبون ظهورها ، وتحملون عليها الأحمال الثقال ﴿ومنها تأكلون﴾ أي وتأكلون لحومها كذلك ﴿وعليها على الفلك تحملون﴾ أي وتحملون على الإبل في البر كما تحملون على السُّفن في البحر ، فإنَّ الإبل سفائن البر كما أن الفلك سفائن البحر .

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

(١) مختصر ابن كثير ٢/٥٦٣ . (٢) أخرجه أحمد .

١ ـ الإخبار بصيغة الماضي لإفادة الثبوت والتحقق ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ كما أنَّ ﴿قد﴾ لإفادة التحقيق ايضاً .

٢ ـ التفصيل بعد الإجمال ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون . .﴾ الخ .

٣ ـ إنزال غير المنكر منزلة المنكر ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ الناس لا ينكرون الموت ولكنَّ غفلتهم عنه وعدم استعدادهم له بالعمل الصالح يعدَّان من علامات الإنكار ولذلك نزلوا منزلة المنكرين وألقي الخبر مؤكداً بمؤكدين « إنَّ واللام » .

٤ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿سبع طرائق﴾ شبهت السموات السبع بطرائق النعل التي يجعل بعضها فوق بعض بطريق الاستعارة .

٥ ـ التهديد ﴿وإنا على ذهاب به لقادرون﴾ .

٦ ـ السجع غير المتكلف ﴿خاشعون ، حافظون ، عادون﴾ وكذلك ﴿طين ، مكين ، الخالقين﴾ وهو من المحسنات البديعية .

تنبيه : ذكر تعالى في هذه الآيات من قوله ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ إلى قوله ﴿وعلى الفلك تحملون﴾ أربعة أنواع من دلائل قدرته تعالى ، **الأول** : تقلب الإنسان في أطوار الخلق وهي تسعة آخرها البعث بعد الموت ، **الثاني** : خلق السموات السبع ، **الثالث** : إنزال الماء من السماء ، **الرابع** : منافع الحيوانات وذكر منها أربعة أنواع « الانتفاع بالألبان ، وبالصوف ، وباللحوم ، وبالركوب » .

فائدة : روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ذات يوم ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال (اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا) ثم قال : لقد أُنزل عليَّ عشر آيات من أقامهنَّ دخل الجنة ثم قرأ ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر[1]» .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه . . إلى . . وأنا ربكم فاتقون ﴾ من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٥٢) .

المناسبة : لما ذكر تعالى دلائل التوحيد في خلق الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، وفي خلق السموات والأرض ، وعدَّد نعمه على عباده ، ذكر هنا أمثالاً لكفار مكة من المكذبين من الأمم السابقة وما

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي .

نالهم من العذاب ، فابتدأ بقصة نوح ، ثم بقصة هود ، ثم بقصة موسى وفرعون ، ثم بقصة عيسى بن مريم ، وكلُّها عبر وعظات للمكذبين بالرسل والآيات .

اللغــة : ﴿جِنة﴾ بكسر الجيم أي جنون ﴿فتربصوا﴾ فانتظروا والتربص : الانتظار ﴿مبتلين﴾ مختبرين ﴿هيهات﴾ اسم فعل ماض بمعنى بَعُدَ قال الشاعر :

تذكرت أياماً مضين من الصبا وهيهات هيهاتاً إليك رجوعها[1]

﴿غثاء﴾ الغثاء : العشب إذا يبس ، وغُثاء السيل : ما يحمله من الحشيش والقصب اليابس ونحوه ﴿بعداً﴾ هلاكاً قال الرازي: بعداً وسُحقاً ودماراً ونحوها مصادر موضوعةمواضع أفعالها قال سيبويه وهي منصوبة بأفعال لا يستعمل إظهارها ومعنى ﴿بعداً﴾ بعدوا بعداً أي هلكوا[2] ﴿قروناً﴾ أمماً ﴿تترى﴾ تتابع يأتي بعضهم إثر بعض ﴿أحاديث﴾ جمع أُحدوثة كأُعجوبة وهي ما يتحدث به عجباً وتسلية ﴿معين﴾ ماء جار ظاهر للعيون ﴿ربوة﴾ الربوة : المكان المرتفع من الأرض .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾

التفسير : ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ أي والله لقد أرسلنا رسولنا نوحاً إلى قومه داعياً لهم إلى الله قال المفسرون : هذه تعزية لرسول الله ﷺ بذكر هذا الرسول ، ليتأسى به في صبره ، وليعلم أنَّ الرسل قبله قد كُذبوا ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـهٍ غيره﴾ أي اعبدوه وحده فليس لكم ربٌّ سواه ﴿أفلا تتقون﴾ زجرٌ ووعيد أي أفلا تخافون عقوبته بعبادتكم غيره ؟ ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي فقال أشراف قومه ورؤساؤهم المعنون في الكفر والضلال ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ أي ما هذا الذي يزعم أنه رسول إلا رجلٌ من البشر يريد أن يطلب الرياسةوالشرف عليكم بدعواه النبوة لتكونوا له أتباعاً . واعجبْ بضلال هؤلاء استبعدوا أن تكون النبوة لبشر ، وأثبتوا الربوبية لحجر ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ أي لو أراد الله أن يبعث رسولاً لبعث ملكاً ولم يكن بشراً ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ أي ما سمعنا بمثل هذا الكلام في الأمم الماضية ، والدهور الخالية ﴿إن هو إلا رجلٌ به جِنة﴾ أي ما هو إلا رجلٌ به جنون ﴿فتربصوا به حتى حين﴾ أي انتظروا واصبروا عليه مدة حتى يموت ﴿قال رب انصرني بما كذبون﴾ أي قال نوح بعد ما يئس من

(١) القرطبي ١٢/ ١٢٢ . (٢) التفسير الكبير ٢٣/ ٩٩ .

فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ

إيمانهم : ربِّ انصرني عليهم بإهلاكهم عامةً بسبب تكذيبهم إياي ﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا﴾ أي فأوحينا إليه عند ذلك ان اصنع السفينة بمرأى منا وحفظنا ﴿ووحينا﴾ أي بأمرنا وتعليمنا ﴿فإذا جاء أمرنا﴾ أي فإذا جاء أمرنا بإنزال العذاب ﴿وفار التنور﴾ أي فار الماء في التنور الذي يخبز فيه قال المفسرون : جعل الله ذلك علامة لنوح على هلاك قومه ﴿فاسلك فيها من كل زوجين اثنين﴾ أي فأدخل في السفينة من كل صنفٍ من الحيوان زوجين « ذكر وأنثى » لئلا ينقطع نسل ذلك الحيوان ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم﴾ أي واحمل أهلك أيضاً إلاّ من سبق عليه القول بالهلاك ممن لم يؤمن كزوجته وابنه ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغرقون﴾ أي ولا تسألني الشفاعة للظالمين عند مشاهدة هلاكهم فقد قضيت أنهم مغرقون محكوم عليهم بالغرق ﴿فإذا استويت أنتَ ومن معكَ على الفلك﴾ أي فإذا علوت أنت ومن معك من المؤمنين على السفينة ﴿فقل الحمد لله الذي نجَّانا من القوم الظالمين﴾ أي احمدوا الله على تخليصه إياكم من الغرق وإنما قال ﴿فقل﴾ ولم يقل فقولوا لأن نوحاً كان نبياً لهم وإماماً فخطابه خطابٌ لهم ﴿وقل ربِّ أنزلني مُنزلاً مباركاً﴾ أي أنزلني إنزالاً مباركاً يحفظني من كل سوء وشر قال ابن عباس : هذا حين خرج من السفينة ﴿وأنت خير المُنزلين﴾ أي أنت يا رب خير المنزلين لأوليائك والحافظين لعبادك ﴿إنَّ في ذلك لآيات﴾ أي إنَّ فيما جرى على أمة نوح لدلائل وعبر يستدل بها أولوا الأبصار ﴿وإن كنا لمبتلين﴾ أي وإنَّ الحال والشأن كنا مختبرين للعباد بإرسال المرسلين ﴿ثمَّ انشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ أي ثم أوجدنا من بعد قوم نوح قوماً آخرين يخلفونهم وهم قوم عاد ﴿فأرسلنا فيهم رسولاً منهم﴾ أي أرسلنا إليهم رسولاً من عشيرتهم هو هود عليه السلام ﴿أنِ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي اعبدوه وحده ولا تشركوا به أحداً لأنه ليس لكم ربٌّ سواه ﴿أفلا تتقون﴾ أي أفلا تخافون عذابه وانتقامه إن كفرتم ؟ ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة﴾ أي قال أشراف قومه الكفرة المكذبون بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب ﴿وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ أي وسَّعنا عليهم نعم الدنيا حتى بطروا ونعمناهم في هذه الحياة ﴿ما هذا إلا بشرٌ مثلكم﴾ أي قالوا لأتباعهم مضلين لهم : ما هذا الذي يزعم أنه رسول إلا إنسان مثلكم ﴿يأكل مما

وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾

تأكلون منه ويشرب مما تشربون﴾ أي يأكل مثلكم ويشرب مثلكم فلا فضل له عليكم لأنه محتاج إلى الطعام والشراب ﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون﴾ أي ولئن أطعتموه وصدقتموه فإنكم لخاسرون حقاً حيث أذللتم أنفسكم باتّباعه قال أبو السعود : انظر كيف جعلوا اتباع الرسول الحق الذي يوصلهم الى سعادة الدارين خسراناً دون عبادة الأصنام التي لا خسران وراءها ؟ قاتلهم الله أنّى يؤفكون[1] ﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً﴾ استفهام على وجه الاستهزاء والاستبعاد أي أيعدكم بالحياة بعد الموت بعد أن تصبحوا رفاتاً وعظاماً بالية ؟ ﴿أنّكم مخرجون﴾ أي أنكم ستخرجون أحياء من قبوركم وكرَّر لفظ ﴿أنكم﴾ تأكيداً لأنه لمّا طال الكلام حسن التكرار ﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾ أي بعد بعُد هذا الذي توعدونه من الإخراج من القبور ، وغرضهم بهذا الاستبعاد أنه لا يكون أبداً ﴿إنْ هي إلا حياتنا الدنيا﴾ أي لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا ﴿نموت ونحيا﴾ أي يموتُ بعضنا ويُولد بعضنا إلى انقراض العصر ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ أي لا بعث ولا نشور ﴿إن هو إلاّ رجلٌ افترى على الله كذباً﴾ أي ما هو إلا رجل كاذب يكذب على الله فيما جاءكم به من الرسالة ، والإخبار بالمعاد ﴿وما نحن له بمؤمنين﴾ أي ولسنا له بمصدقين فيما يقوله ﴿قال ربِّ انصرني بما كذَّبون﴾ لما يئس نبيُّهم من إيمانهم ورأى إصرارهم على الكفر دعا عليهم بالهلاك والمعنى ربِّ انصرني عليهم بسبب تكذيبهم إياي ﴿قال عمّا قليلٍ ليصبحنَّ نادمين﴾ أي عن قريب من الزمان سيصيرون نادمين على كفرهم ﴿فأخذتهم الصيحةُ بالحق﴾ أي أخذتهم صيحة العذاب المدمر عدلاً من الله لا ظلماً ﴿فجعلناهم غثاء﴾ أي هلكى كغثاء السيل قال المفسرون : صاح بهم جبريل صيحة رجفت لها الأرض من تحتهم فصاروا لشدتها غثاءً كغثاء السيل وهو الشيء التافه الحقير الذي لا ينتفع منه بشيء ﴿فبعداً للقوم الظالمين﴾ أي فسحقاً وهلاكاً لهم بكفرهم وظلمهم ، وهي جملة دعائية كأنه قال : بعداً لهم من رحمة الله وهلاكاً ودماراً لهم ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين﴾ أي أوجدنا من بعد هلاك هؤلاء أمماً وخلائق آخرين كقوم صالح وإبراهيم وقوم لوط وشعيب قال ابن عباس : هم بنو إسرائيل ، وفي الكلام حذفٌ تقديره : فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم دلَّ عليه قوله ﴿ما تسبق من أمةٍ أجلها وما يستأخرون﴾ أي ما

(١) إرشاد العقل السليم ٤/ ٣١ .

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

تتقدم أمةٌ من الأمم المهلكة عن الوقت الذي عيِّنَ لهلاكهم ولا تتأخر عنه ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترا﴾ أي بعثنا الرسل متتالين واحداً بعد واحد قال ابن عباس : يتبع بعضهم بعضاً ﴿كلما جاء أمةً رسولها كذبوه﴾ تشنيع عليهم بكمال ضلالهم أي أنهم سلكوا في تكذيب أنبيائهم مسلك من سبقهم من الضالين المكذبين ولهذا قال ﴿فأتبعنا بعضهم بعضاً﴾ أي ألحقنا بعضهم في إثر بعض بالهلاك والدمار ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ أي أخباراً تُروى وأحاديث تُذكر ، يتحدث الناس بما جرى عليهم تعجباً وتسلية ﴿فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾ أي فهلاكاً ودماراً لقومٍ لا يصدّقون الله ورسله ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا﴾ أي أرسلناهما بآياتنا البينات قال ابن عباس : هي الآيات التسع «العصا ، اليد ، الجراد» الخ ﴿وسلطان مبين﴾ أي وحجة واضحة ملزمة للخصم ﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي أرسلناهما الى فرعون الطاغية وأشراف قومه المتكبرين ﴿فاستكبروا﴾ أي عن الايمان بالله وعبادته ﴿وكانوا قوماً عالين﴾ أي متكبرين متمردين ، قاهرين لغيرهم بالظلم ﴿فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ أي أنصدق رجلين مثلنا ونتَّبعهما ؟ ﴿وقومهما لنا عابدون﴾ أي والحال أن قوم موسى وهارون منقادون لنا كالخدم والعبيد ؟ ﴿فكذبوهما فكانوا من المهلكين﴾ أي فكذبوا رسولينا فكانوا من المغرقين في البحر ﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ لعلهم يهتدون﴾ أي أعطينا موسى التوراة بعد غرق فرعون وملائه ليهتدي بها بنو إسرائيل ﴿وجعلنا ابن مريم وأمَّه آيةً﴾ أي وجعلنا قصة مريم وابنها عيسى معجزةً عظيمة تدل على كمال قدرتنا ﴿وآويناهما إلى ربوة﴾ أي وجعلنا منزلهما ومأواهما إلى مكانٍ مرتفع من أرض بيت المقدس قال ابن عباس : الربوة المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ﴿ذات قرارٍ ومعين﴾ أي مستوية يستقر عليها وماءٍ جارٍ ظاهر للعيون قال الرازي : القرار : المستقر كل أرض مستوية مبسوطة ، والمعين : الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض ، وعن قتادة : ذات ثمارٍ وماء ، يعني أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها[1] ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ أي قلنا يا أيها الرسل كلوا من الحلال وتقربوا إلى الله بالأعمال الصالحة ، والنداء لكل رسولٍ في زمانه وصي به كل رسول إرشاداً لأمته كما تقول تخاطب تاجراً : يا تجار اتقوا الربا ﴿إني بما تعملون عليم﴾ وعيدٌ وتحذير أي إني عالم بما

(١) التفسير الكبير ٢٣/١٠٣ .

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾

تعملون لا يخفى عليَّ شيء من أمركم ، قال القرطبي : شمل الكل في الوعيد وإذا كان هذا مع الرسل والأنبياء ، فما ظنُّ كل الناس بأنفسهم[1] ؟ ﴿وإنَّ هذه أمتكم أمة واحدة﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد ، وملتكم ملة واحدة وهي دين الإسلام ﴿وأنا ربكم فاتقون﴾ أي وأنا ربكم لا شريك لي فخافوا عذابي وعقابي .

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة البديعة ﴿اصنع الفلك بأعيننا﴾ عبَّر عن المبالغة في الحفظ والرعاية بالصنع على الأعين لأن الحافظ للشيء في الأغلب يديم مراعاته بعينه فلذلك جاء بذكر الأعين بدلاً من ذكر الحفظ والحراسة على طريق الاستعارة .

٢ ـ الكناية ﴿وفار التنور﴾ كناية عن الشدة كقولهم حمي الوطيس ، وأطلق بعض العلماء التنور على وجه الأرض مجازاً .

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿أنزلني منزلاً﴾ و﴿تعملون عليم﴾ .

٤ ـ الطباق بين ﴿نموت ونحيا﴾ وكذلك بين ﴿تسبق . . ويستأخرون﴾ .

٥ ـ الجناس الناقص ﴿أرسلنا رُسلنا﴾ لتغيير بعض الحروف مع الشكل .

٦ ـ التشبيه البليغ ﴿فجعلناهم غثاء﴾ أي كالغثاء في سرعة زواله ومهانة حاله ، حذف وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً .

٧ ـ أسلوب الإطناب ﴿الذين كفروا ، وكذبوا بلقاء الآخرة ، وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ ذماً لهم وتسجيلاً عليهم القبائح والشناعات .

٨ ـ السجع اللطيف مثل ﴿تتقون ، تشربون ، مخرجون﴾ ومثل ﴿عالين ، المهلكين ، قرار ومعين﴾ .

فَائِدَة : لفظ البشر يطلق على الواحد والجمع ، فمن إطلاقه على الواحد ﴿فتمثَّل لها بشراً سوياً﴾ ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ ؟ ومن إطلاقه على الجمع ﴿فإما ترين من البشر أحداً﴾ ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ أفاده صاحب الكشاف .

* * *

قال الله تعالى : ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زُبُراً . . إلى . . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ من آية (٥٣) إلى نهاية آية (٧٤) .

---

(١) القرطبي ١٢/١٢٨ .

المناسبة : لما ذكر تعالى قصص الأنبياء والمرسلين ، أتبعه بذكر أخبار الكفرة المتمردين من أقوامهم واختلافهم وتفرقهم في الدين حتى أصبحوا فرقاً وأحزاباً ، ليجتنب الإنسان طرق أهل الضلال .

اللغة : ﴿زُبراً﴾ قطعاً جمع زبور وهي القطعة من الفضة أو الحديد ﴿غمرتهم﴾ الغمرة : الحيرة والضلالة وأصله في اللغة : الماء الذي يغمر القامة ﴿يجأرون﴾ يضجون ويستغيثون وأصل الجؤار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور ﴿تنكصون﴾ النكوص : الرجوع الى الوراء ﴿ناكبون﴾ نكب عن الطريق نكوباً إذا عدل عنه ومال الى غيره .

فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ

التفسير : ﴿فتقطَّعوا أمرهم بينهم زُبراً﴾ أي تفرقت الأمم في أمر دينهم فرقاً عديدة وأدياناً مختلفة هذا مجوسي ، وهذا يهودي ، وهذا نصراني بعدما أُمروا بالاجتماع ﴿كلُّ حزب بما لديهم فرحون﴾ أي كل فريق منهم مغتبط بما اتخذه ديناً لنفسه معجب به ، يرى أنه المحقُّ الرابح ، وأنَّ غيره المبطل الخاسر ﴿فذرهم في غمرتهم﴾ الخطاب للرسول ﷺ والضمير لكفار مكة أي فاترك يا محمد هؤلاء المشركين في غفلتهم وجهلهم وضلالهم ﴿حتى حين﴾ أي إلى حين موتهم ، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ ووعيدٌ للمشركين ﴿أيحسبون أنَّما نمدُّهم به من مال وبنين﴾ أي أيظن هؤلاء الكفار أنَّ الذي نعطيهم في الدنيا من الأموال والأولاد ﴿نسارع لهم في الخيرات﴾ أي هو تعجيل ومسارعة لهم في الإحسان ؟ كلاً ليس الأمر كما يظنون بل هو استدراجٌ لهم ، واستجرارٌ الى زيادة الإثم ولهذا قال ﴿بل لا يشعرون﴾ أي بل هم أشباه البهائم ، لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا في الأمر ، أهو استدراج أم مسارعة في الخير ؟ والآية ردٌّ على المشركين في زعمهم أن أموالهم وأولادهم دليلُ رضى الله عنهم كما حكى الله عنهم ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ وفي الحديث (إن الله يعطي الدنيا لمن يحُبُّ ولمن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحبَّ)[1] ، ولمّا ذمَّ المشركين وتوعَّدهم عقَّب ذلك بمدح المؤمنين وذكرهم بأبلغ صفاتهم فقال ﴿إنَّ الذين هم من خشية ربِّهم مشفقون﴾ أي هم من جلال الله وعظمته خائفون ، ومن خوف عذابه حذرون ﴿والذين هم بآياتِ ربهم يؤمنون﴾ أي يصدِّقون بآيات الله القرآنية ، وآياته الكونية وهي الدلائل والبراهين الدالة على وجوده سبحانه

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تـدلُّ على أنه واحد

﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ أي لا يعبدون معه غيره ، بل يوحدونه ويخلصون العمل لوجهه قال

(١) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد .

﴿يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا﴾

الإمام الفخر : وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله فإن ذلك داخل في الآية السابقة ، بل المراد منه نفيُ الشرك الخفي وذلك بأن يخلص في العبادة لوجه الله وطلباً لرضوانه(١) ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ هذه هي الصفة الرابعة من أوصاف المؤمنين أي يعطون العطاء من زكاةٍ وصدقة ، ويتقربون بأنواع القربات من أفعال الخير والبر وهم يخافون أن لا تقبل منهم أعمالهم قال الحسن : إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة ، وإن المنافق جمع إساءةً وأمناً ﴿أنَّهم إلى ربهم راجعون﴾ أي لخوفهم أن يكونوا قد قصَّروا في القيام بشروط الطاعات والأعمال الصالحة ولاعتقادهم أنهم سيرجعون إلى ربهم للحساب ، روي أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عن الآية الكريمة فقالت ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ أهو الذي يزني ، ويسرق ، ويشرب الخمر وهو يخاف الله عزَّ وجل ؟ فقال لها :(لا يا بنت الصِّديق ! ولكنه الذي يصلي ، ويصوم ، ويتصدق وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل)(٢) ﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين يسابقون في الطاعات لنيل أعلى الدرجات لا أولئك الكفرة المجرمون ﴿وهم لها سابقون﴾ أي هم الجديرون بها والسابقون إليها قال الإمام الفخر : واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن ، فالصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد ، الموجب للاحتراز عما لا ينبغي ، والثانية :دلت على التصديق بوحدانية الله ،والثالثة :دلت على ترك الرياء في الطاعات ، والرابعة :دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير ، وذلك هو نهاية مقامات الصدّيقين رزقنا الله الوصول إليها(٣) ﴿ولا نُكلِّف نفساً إلا وُسعها﴾ أي لا نكلّف أحداً من العباد ما لا يطيق تفضلاً منّا ولطفاً . أتى بهذه الآية عقب أوصاف المؤمنين إشارةً إلى أن أولئك المخلصين لم يُكلفوا بما ليس في قدرتهم وأن جميع التكاليف في طاقة الإنسان ﴿ولدينا كتابٌ ينطق بالحق﴾ أي وعندنا صحائف أعمال العباد التي سطر فيها ما عملوا من خير أو شر نجازيهم في الآخرة عليها ولهذا قال ﴿وهم لا يُظلمون﴾ أي لا يظلمون من أعمالهم شيئاً بنقص الثواب أو زيادة العقاب قال القرطبي : والآية تهديد وتأمين من الحيف والظلم(٤) ﴿بل قلوبهم في غمرةٍ من هذا﴾ أي بل قلوب الكفرة المجرمين في غطاءٍ وغفلةٍ وعماية عن هذا القرآن ﴿ولهم أعمالٌ من دون ذلك﴾ أي ولهم أعمال سيئة كثيرة غير الكفر والإشراك ﴿هم لها عاملون﴾ أي سيعملونها في المستقبل لتحقَّ عليهم الشقاوة فقد جمعوا بين الكفر وسوء الأعمال فحقت عليهم كلمة العذاب ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب﴾ أي حتى إذا أخذنا أغنياءهم وكبراءهم المتنعمين في هذه الحياة بالعذاب العاجل

(١) التفسير الكبير ٢٣/١٠٧ . (٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد . (٣)التفسير الكبير ٢٣/١٠٧ . (٤) القرطبي ١٢/١٣٤ .

هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾

كالجوع والقتل والأسر ﴿إذا هـم يجأرون﴾ أي إذا هـم يصيحون ويرفعون أصواتهم بالاستغاثة قال ابن عباس : هو الجوع الذي عذبوا به سبع سنين ﴿لا تجأروا اليـوم﴾ أي لا تستغيثوا اليوم من العذاب ﴿إنكـم منـا لا تُنصـرون﴾ أي لا تمنعون من عذابنا فلا ينفعكم صراخ ولا استغاثة ﴿قد كانـت آياتـي تُتلـى عليكـم﴾ أي لقد كنتم تسمعون آيات القرآن تقرأ عليكم ﴿فكنتـم علـى أعقابكـم تنكصـون﴾ أي كنتم تنفرون عن تلك الآيات كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع إلى ورائه ، وهذا تمثيلٌ لإعراضهم عن الحق بالراجع الى الخلف ﴿مستكبرين بـه﴾ أي مستكبرين بسبب القرآن عن الإيمان قال ابن كثير : الضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهُجْر من الكلام يقولون إنه سحر ، شعر ، كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة[1] وقال ابن الجوزي : الضمير عائد الى البيت الحرام وهي كناية عن غير مذكور لشهرة الأمر والمعنى : إنكم تستكبرون وتفتخرون بالبيت والحرم لأمنكم فيه مع خوف سائر الناس في مواطنهم ، تقولون : نحن أهل الحرم فلا نخاف أحداً ، ونحن أهل بيت الله وولاته ، هذا مذهب ابن عباس وغيره[2] ﴿سامـراً تهجـرون﴾ أي متحدثين ليلاً تسمرون تقولون في سمركم الهجر وهو القـول الفاحش من الطعن في القرآن ، وسبِّ النبي عليه السلام ﴿أفلـم يدَّبَّـروا القـول﴾ أي أفلم يتدبروا هذا القرآن العظيم ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم أنه كلام الله فيصدقوا به ؟ ﴿أم جاءهـم ما لـم يأتِ آباءهـم الأوليـن﴾ أي أم جاءهم من الله بشيء مبتدع لم يأت مثله في آبائهم السابقين ؟ قال أبو السعود : يعني أن مجيء الكتب من جهته تعالى الى الرسل سنة قديمة لا يكاد يتسنى إنكاره ، وأن مجيء القرآن على طريقته فمن أين ينكرونه[3] ؟ ﴿أم لـم يعرفـوا رسولهـم فهـم لـه منكـرون﴾ توبيخ آخر لهم أي أم لم يعرفوا محمداً ﷺ بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق؟ وبَّخهم أولاً بترك الانتفاع بالقرآن، وثانياً بأن ما جاءهم قد جاء مثله لآبائهم الأولين وثالثاً بأنهم يعرفون محمداً ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته ورابعاً اتهامهم له بالجنون وقد علموا أنه عليه السلام أرجحهم عقلاً وأثقبهم ذهناً ولهذا قال بعده ﴿أم يقولـون بـه جِنـة﴾ أي أم يقولون إن محمـداً مجنون ، وهذا توبيخ آخر وتعجيبٌ من تفننهم في العناد ، وتلونهم في الجحود ﴿بـل جاءهـم بالحـق﴾ ﴿بـل﴾ للإضراب أي ليس الأمر كما زعموا بل جاءهم محمد بالحقِّ الساطع الذي لا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه ، وبالقرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الإسلام ﴿وأكثرهـم للحـقِّ كارهـون﴾ أي ومع

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٦٩ . (٢) زاد المسير ٥/ ٤٨٢ . (٣) أبو السعود ٤/ ٣٨ .

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾

وضوح الدعوة فإنَّ أكثر المشركين يكرهون الحقَّ لما في قلوبهم من الزيغ والانحراف ﴿ولو اتَّبع الحقُّ أهواءهم﴾ أي لو كان ما كرهوه من الحقّ ـ الذي هو التوحيد والعدل ـ موافقاً لأهوائهم الفاسدة ، ومتمشياً مع رغباتهم الزائغة ﴿لفسدت السموات والأرض ومن فيهنّ﴾ أي لفسد نظام العالم أجمع علويُّه وسفليُّه ، وفسد من فيه من المخلوقات لفساد أهوائهم واختلافهم قال ابن كثير : وفي هذا كله تبيين عجز العباد ، واختلاف آرائهم وأهوائهم ، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وتدبيره لخلقه[1] ﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾ أي بل أتيناهم بما فيه فخرهم وشرفهم ، وهو هذا القرآن العظيم الذي أكرمهم الله تعالى به ﴿فهم عن ذكرهم معرضون﴾ أي فهم معرضون عن هذا القرآن وكان اللائق بهم الانقياد له وتعظيمه لأنه شرفهم وعزُّهم ، وأعاد لفظ « الذكر » تعظيماً للقرآن ﴿أم تسألهم خرجاً﴾ أي أم تسألهم يا محمد أجراً على تبليغ الرسالة فلأجل ذلك لا يؤمنون ، وفي هذا تشنيعٌ عليهم لعدم الإِيمان فمحمد لا يطلب منهم أجراً فلماذا إذاً يكذبونه ويعادونه؟﴿فخراج ربك خير﴾ أي رزق الله وعطاؤه خيرٌ لك يا محمد ﴿وهو خير الرازقين﴾ أي هو تعالى أفضلُ من أعطى ورزق لأنه يعطي لا لحاجة ، وغيره يعطي لحاجة ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراطٍ مستقيم﴾ أي وإنك يا محمد لتدعوهم إلى الطريق المستقيم وهو الإِسلام الموصل الى جنات النعيم ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ أي وإنَّ الذين لا يصدقون بالبعث والثواب والعقاب لعادلون عن الطريق المستقيم منحرفون عنه .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿فذرهم في غمرتهم﴾ أصل الغمرة الماء الذي يغمر القامة ، شبَّه ما هم فيه من الجهالة والضلالة بالماء الذي يغمر الإِنسان من فرقه إلى قدمه على سبيل الاستعارة .

٢ ـ الاستفهام الإِنكاري ﴿أيحسبون أنما نمدهم﴾ ؟

٣ ـ حذف الرابط في ﴿نسارع لهم في الخيرات﴾ حذف « بـه » أي نسارع لهم به في الخيرات ، وحسن حذفه لاستطالة الكلام مع أمن اللبس .

٤ ـ الطباق بين ﴿يؤمنون . . ويشركون﴾ .

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٧٠ .

٥ ـ الاستعارة البديعة ﴿ولدينا كتابٌ ينطق بالحق﴾ النطق لا يكون إلا ممن يتكلم بلسانه ، والكتاب ليس له لسان،فوصف سبحانه الكتاب بالنطق مبالغة في وصفه بإظهار البيان وإعلان البرهان ، وتشبيهاً باللسان الناطق بطريق الاستعارة .

٦ ـ جناس الاشتقاق ﴿يؤتون ما آتوا﴾ ﴿أعمال هم لها عاملون﴾ .

٧ ـ الاستعارة الفائقة ﴿فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ شبّه إعراضهم عن الحق بالراجع القهقرى الى الخلف وهو من قبيل الاستعارة التمثيلية .

٨ ـ السجع الرصين ﴿مشفقون ، يؤمنون ، يشركون ، سابقون﴾ الخ .

* * *

قال الله تعالى: ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر . . إلى . . اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ من آية (٧٥) إلى نهاية آية (١١٨) .

المناسبة : لما ذكر تعالى إعراض المشركين عن دعوة الإيمان ، ذكر هنا سبب الإعراض وهو العناد والطغيان ، ثم أردفه بإقامة الأدلة على التوحيد ، ثم ذكر أحوال الآخرة وانقسام الناس إلى سعداء وأشقياء ، وختم السورة ببيان الحكمة من حشر الناس إلى دار الجزاء وأنه لولا القيامة لما تميز المطيع من العاصي ولا البرُّ من الفاجر .

اللغة : ﴿مبلسون﴾ يائسون متحيرون ، والإبلاس : اليأس من كل خير ﴿يجير﴾ يمنع ويحمي من استغاث به يقال : أجرت فلاناً على فلان إذا أغثته ومنعته منه ﴿همزات﴾ جمع همزة وهي الدفع والتحريك الشديد وهو كالهز والأزّ ، وهمزات الشيطان : كيده بالوسوسة ﴿برزخ﴾ حاجز ومانع قال الجوهري : البرزخ : الحاجز بين الشيئين[1] ﴿كالحون﴾ الكلوح : أن تتقلَّص الشفتان وتتباعد عن الأسنان ، وذلك نهاية القبح لوجه الإنسان .

سبب النزول : عن ابن عباس قال : نزلت في قصة « ثمامة بن أُثال » لما أسرته السرية وأسلم وخلى رسول الله ﷺ سبيله ، حال بين مكة وبين الميرة وقال : والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ، وأخذ اللهُ قريشاً بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعلهز قيل وما العلهز ؟ قال كانوا يأخذون الصوف والوبر فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه فقال أبو سفيان : أنشدك الله والرَّحم ، أليس تزعم أنَّ الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال : بلى ، قال فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع فنزل قوله تعالى ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضُرٍّ للجوا في طغيانهم يعمهون﴾[2] الآيات .

---

(١) القرطبي ١٢/ ١٥٠ . (٢) البحر ٦/ ٤١٥ .

* وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ

التفسير : ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضُرٍّ﴾ أي لو رحمنا هؤلاء المشركين الذين كذبوك وعاندوك ورفعنا عنهم ما أصابهم من قحطٍ وجدب وكشفنا عنهم البلاء ﴿للجُّوا في طغيانهم يعمهون﴾ أي لاستمروا وتمادوا في ضلالتهم وتجاوزهم الحدَّ يترددون ويتخبطون حيارى ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد ، وبالقحط والجوع ﴿فما استكانوا لربهم﴾ أي ما خضعوا لله ولا تواضعوا لجلاله ﴿وما يتضرعون﴾ أي وما دعوا ربهم لكشف البلاء بل استمروا على العتوّ والاستكبار ، والغرضُ أنه لم يحصل منهم تواضع ورجوع إلى الله في الماضي ، ولا التجاءً إلى الله في المستقبل لشدة جبروتهم وطغيانهم ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذابٍ شديد﴾ أي حتى إذا جاءتهم أهوال الآخرة وأتاهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴿إذا هم فيه مُبلسون﴾ أي إذا هم آيسون من كل خير قال أبو السعود : المراد بالعذاب عذاب الآخرة كما ينبيء عنه التهويل والوصف بالشدة والمعنى أنا محناهم بكل محنة من القتل ، والأسر ، والجوع وغير ذلك فما رؤي منهم لين ولا توجهٌ إلى الإسلام الى أن يروا عذاب الآخرة فحينئذٍ يبلسون وتخضع رقابهم[1] ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه ودلائل وحدانيته فقال ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي خلق لكم هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا ، وفيه توبيخٌ للمشركين حيث لم يصرفوا النعم في مصارفها ، لأن السمع خلق ليسمع به ما يرشده ، والبصر ليشاهد به الآيات على كمال أوصاف الله ، والعقل ليتأمل به في مصنوعات الله وباهر قدرته فمن لم يصرف تلك النعم في مصارفها فهو بمنزلة عادمها كما قال تعالى ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾ وخصَّ هذه الثلاثة بالذكر لعظم المنافع التي فيها ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي قليلاً تشكرون ربكم ، و﴿ما﴾ لتأكيد القلة أي ما أقل شكركم لله على كثرة إفضاله وإنعامه عليكم ؟ ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي خلقكم وبثكم في الأرض بطريق التناسل ﴿وإليه تُحشرون﴾ أي وإليه وحده تجمعون للجزاء والحساب ﴿وهو الذي يُحيي ويُميت﴾ أي يُحيي الرِّمم[2] ويميت الخلائق والأمم ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾ أي إن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان بفعله سبحانه وحده ليقيم الدليل على وجوده وقدرته ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفليس لكم عقول تدركون بها دلائل قدرته ، وآثار قهره ، فتعلمون أن من قدر على ذلك ابتداءً ، قادرٌ على إعادة الخلق بعد الفناء ؟ ﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون﴾ ﴿بل﴾ للإضراب أي ليس لهم عقل ولا نظر في هذه الآيات والعبر ، بل قال هؤلاء

(١) أبو السعود ٤/ ٤٠ . (٢) إشارة الى قوله تعالى ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ ؟

أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

المشركون ـ من كفار مكة ـ مثل ما قال الأمم المتقدمون ﴿قالوا أئذا متنا وكنَّا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ ؟ أي أئذا بلينا وصرنا ذراتٍ ناعمة ، وعظاماً نخرة أئنا لمخلوقون ثانية ؟ هذا لا يتصور ولا يكون أبداً ﴿لقد وُعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل﴾ أي لقد وعدنا بهذا نحن ومن سبقنا فلم نر له حقيقة ﴿إنْ هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي ما هذا إلا أكاذيب وأباطيل المتقدمين ولما أنكروا البعث والنشور أمر تعالى رسوله أن يفحمهم بالحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل فقال ﴿قل لمن الأرض ومن فيها﴾ ؟ أي قل يا محمد جواباً لهم عما قالوه : لمن الأرض ومن فيها من المخلوقات ؟ ومن مالكها والمتصرف فيها بالإيجاد والإفناء ؟ ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي إن كان عندكم علمٌ فأخبروني بذلك ، وفيه استهانةٌ بهم وتقريرٌ لجهلهم قال القرطبي : يخبر تعالى في الآية بربوبيته ووحدانيته ، وملكه الذي لا يزول ، وقدرته التي لا تحول ، ودلت هذه الآيات ـ وما بعدها ـ على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم ، ونبَّهت على أنَّ من ابتدأ بالخلق والإيجاد ، والإبداع ، هو المستحقُّ للألوهية والعبادة[1] ﴿سيقولون للّه﴾ أي فسيقولون الله خالقها وموجدها ولا بدَّ لهم من الاعتراف بذلك ﴿قل أفلا تذكرون﴾ ؟ أي أفلا تعتبرون فتعلمون أن من ابتدأ ذلك قادر على إعادته ؟ ﴿قل من ربُّ السموات السبع وربُّ العرش العظيم﴾ ؟ أي من هو خالق السموات الطباق بما فيها الشموس ، والكواكب والأقمار ، ومن هو خالق العرش الكبير الذي تحمله الملائكة الأطهار ؟ ﴿سيقولون للّه﴾ أي سيقولون : اللهُ خالقه وهو للّه ﴿قل أفلا تتقون﴾ أي أفلا تخافون من عذابه فتوحّدونه وتتركون عبادة غيره من الأوثان والأصنام ﴿قلْ من بيده ملكوت كلِّ شيء﴾ الملكُوت من صفات المبالغة أي من بيده الملك الواسع التام ؟ ومن بيده خزائن كل شيء ؟ ومن هو المتصرف في هذه الأكوان بالخلق والإيجاد والتدبير ؟ ﴿وهو يُجير ولا يُجار عليه﴾ أي يحمي من استجار به والتجأ إليه ، ولا يغيث أحدٌ منه أحداً ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك ﴿سيقولون للّه﴾ أي سيقولون : الملك كله والتدبيرُ للّه جلَّ وعلا ﴿قل فأنّى تُسحرون﴾ أي قل لهم : فكيف تُخدعون وتُصرفون عن طاعته وتوحيده مع اعترافكم وعلمكم بأنه وحده المتصرف المالك ؟ قال أبو حيان : والسحر هنا مستعار وهو تشبيه لما يقع منهم من التخليط ، ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع للمسحور من التخبط والتخليط[2] رتَّب

(١) القرطبي ١٢/١٤٥ ، ٤٦ . (٢) البحر المحيط ٦/٤١٨ .

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝٩٠ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٩٢ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝٩٣ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٩٤ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ۝٩٥ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦﴾

هذه التوبيخات الثلاثة بالتدريج فقال أولاً ﴿أفلا تذكرون﴾ ؟ ثم قال ثانياً ﴿أفلا تتقون﴾ ؟ وذلك أبلغ لأن فيه زيادة تخويف ، ثم قال ثالثاً ﴿فأنى تُسحرون﴾ وفيه من التوبيخ ما ليس في غيره[1] ﴿بل أتيناهم بالحق﴾ أي بل جئناهم بالقول الصدق في أمر التوحيد والبعث والجزاء ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي كاذبون فيما ينسبون لله من الشركاء والأولاد . لَمَّا بالغ في الحِجاج عليهم بالآيات السابقة أعقبها بهذه الآية كالوعيد والتهديد ، ثم بيَّن بطلان الشريك والولد بالبرهان القاطع فقال ﴿ما اتخذ اللهُ من ولد﴾ أي ما اتخذ الله ولداً مطلقاً لا من الملائكة ولا من البشر ﴿وما كان معه من إلهٍ﴾ أي وليس معه من يشاركه في الألوهية والربوبية ﴿إذاً لذهب كل إلهٍ بما خلق﴾ أي لو كان معه إله ـ كما زعم عبدة الأوثان ـ لانفرد كل إلهٍ بخلقه الذي خلق واستبدَّ به ، وتميَّز ملك كلٍّ واحد عن ملك الآخر ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾ أي ولغلب بعضهم على بعض كحال ملوك الدنيا قال ابن كثير : المعنى لو قدر تعدُّد الآلهة لا نفرد كلٌّ منهم بما خلق ، ثم لكان كلٌّ منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض وما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظمٌ متَّسقٌ غاية الكمال فدل على تنزه الله عن الولد والشريك[2] ولهذا قال ﴿سبحان الله عمَّا يصفون﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس عما يصفه به الظالمون ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي هو تعالى العالم بما غاب عن الأنظار ، وبما تدركه الأبصار ، لا تخفى عليه خافية من شؤون الخلق ﴿فتعالى عمَّا يشركون﴾ أي تقدَّس وتنزَّه عن الشريك والولد ﴿قلْ ربِّ إمَّا تُريني ما يُوعدون﴾ أي قل يا ربِّ إن كان ولا بدَّ من أن تُرِيَني ما تعدهم من العذاب في الدنيا ﴿ربِّ فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾ هذا جواب الشرط ﴿إما﴾ وكرَّر قوله ﴿ربِّ﴾ مبالغةً في الدعاء والتضرع أي ربِّ فلا تجعلني في جملة الظالمين فأهلك بهلاكهم قال أبو حيان : ومعلوم أنه عليه السلام معصومٌ مما يكون سبباً لجعله مع الظالمين ولكنه أُمر أن يدعو بذلك إظهاراً للعبودية وتواضعاً لله[3] ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ أي ونحن قادرون على أن نريك العذاب الذي وعدناهم به ولكن نؤخره لحكمة ﴿إدفعْ بالتي هي أحسن السيئة﴾ أي ادفع إساءتهم بالصفح عنهم وتجمَّل بمكارم الأخلاق قال ابن كثير : أرشده الى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان الى من يسيء إليه ليستجلب خاطره ، فتعود عداوته صداقةً ، وبغضه محبة[4] ﴿نحن أعلم بما يصفون﴾ أي نحن أعلم بحالهم وبما يكون منهم

(١) نقلاً عن التسهيل ٣/ ٥٥ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٧٣ . (٣) البحر ٦/ ٤٢٠ . (٤) ابن كثير المختصر ٢/ ٥٧٤ .

وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

من التكذيب والاستهزاء وسنجازيهم عليه ﴿وقل ربِّ أعوذُ بك من همزات الشياطين﴾ أي أعتصم بك من نزغات الشياطين ووساوسهم المغرية على الباطل والمعاصي ﴿وأعوذ بك ربِّ أن يحضرون﴾ أي وأعتصم وأحتمي بك يا رب من أن يصيبوني بسوء أو يكونوا معي في أموري ، كرَّر ذلك للمبالغة والاعتناء بشأن الاستعاذة ﴿حتى إذا جاء أحَدهم الموت﴾ عاد الكلام عن المشركين أي حتى إذا حضر الموتُ أحدهم وعاين أهواله وشدائده ﴿قال ربِّ ارجعون﴾ أي قال تحسراً على ما فرط منه : ربِّ ردَّني الى الدنيا ، وصيغة الجمع للتعظيم ﴿لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ أي لكي أعمل صالحاً فيما ضيَّعت من عمري ﴿كلاَّ إنها كلمةٌ هو قائلها﴾ ﴿كلا﴾ كلمةُ ردع وزجر أي لا رجوع إلى الدنيا فليرتدع عن ذلك فإن طلبه للرجعة كلام لا فائدة فيه ولا جدوى منه وهو ذاهبُ أدراج الرياح ﴿ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يُبعثون﴾ أي وأمامهم حاجزٌ يمنعهم عن الرجوع إلى الدنيا ـ هو عالم البرزخ ـ الذي يحول بينهم وبين الرجعة يلبثون فيه إلى يوم القيامة قال مجاهد : البرزخُ : الحاجز ما بين الدنيا والآخرة ﴿فإذا نُفخ في الصور﴾ أي فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور ﴿فلا أنساب بينهم يومئذٍ﴾ أي فلا قرابة ولا نسب ينفعهم يوم القيامة لزوال التراحم والتعاطف من شدة الهول والدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وأُمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴿ولا يتساءلون﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن شأنه لاشتغال كل واحد بنفسه ، ولا تنافي بينها وبين قوله ﴿وأقبل بعضُهم على بعض يتساءلون﴾ لأن يوم القيامة طويل وفيه مواقف ومواطن ، ففي بعضها يتكلمون وفي بعضها لا ينطقون ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ أي فمن رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي فهم السعداء الذين فازوا فنجوا من النار وأُدخلوا الجنة ﴿ومن خفَّت موازينه﴾ أي زادت سيئاته على حسناته ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي فهم الأشقياء الذين خسروا سعادتهم الأبدية بتضييع أنفسهم وتدنيسها بالكفر والمعاصي ﴿في جهنم خالدون﴾ أي هم مقيمون في جهنم لا يخرجون منها أبداً ﴿تلفح وجوههم النار﴾ أي تحرقها بشدة حرِّها ، وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء ﴿وهم فيها كالحون﴾ أي وهم في جهنم عابسون مشوَّهو المنظر قال ابن مسعود : قد بدتْ أسنانهم وتقلَّصت شفاههم كالرأس المُشيَّط بالنار ، وفي الحديث (تشويه النارُ فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا﴾

شفته السفلى حتى تبلغ سُرَّته)[1] ﴿ألم تكن آياتي تُتلى عليكم﴾ أي يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً: ألم تكن آيات القرآن الساطع تقرأ عليكم في الدنيا؟ ﴿فكنتم بها تكذبون﴾ أي فكنتم لا تصدّقون بها مع وضوحها ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شِقوتنا﴾ أي غلبت علينا شقاوتنا ﴿وكنَّا قوماً ضالين﴾ أي وكنَّا ضالين عن الهدى بسبب اتباعنا للملذّات والأهواء ﴿ربَّنا أخرجنا منها﴾ أي أخرجنا من النار وردَّنا الى الدنيا ﴿فإن عُدنا فإنا ظالمون﴾ أي فإن رجعنا الى الكفر والمعاصي بعد ذلك نكون قد تجاوزنا الحدَّ في الظلم والعدوان. أقروا أولاً بالإجرام ثم تدرجوا من الإقرار الى الرغبة والتضرع فجاء الجواب بالتيئيس والزجر ﴿قال اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ أي ذلوا في النار وانزجروا كما تُزجر الكلاب ولا تكلموني في رفع العذاب قال في التسهيل: اخسئوا: كلمة تستعمل في زجر الكلاب ففيها إهانةٌ وإبعاد[2] ﴿إنه كان فريقٌ من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين﴾ قال مجاهد: هم بلال، وخباب، وصهيب وغيرهم من ضعفاء المسلمين كان أبو جهل وأصحابه يهزءون بهم[3] ﴿فاتخذتموهم سخرياً﴾ أي فسخرتم منهم واستهزأتم بهم ﴿حتى أنسوكم ذكري﴾ أي حتى نسيتم بتشاغلكم بهم واستهزائكم عليهم عن طاعتي وعبادتي ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ أي وكنتم تضحكون عليهم في الدنيا ﴿إني جزيتُهم اليوم بما صبروا﴾ أي جزيتهم بسبب صبرهم على أذاكم أحسن الجزاء ﴿أنهم هم الفائزون﴾ أي أنهم هم الفائزون بالنعيم المقيم ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ أي قال تعالى للكفار على سبيل التبكيت والتوبيخ: كم مكثتم في الدنيا وعمَّرتم فيها من السنين؟ ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ أي مكثنا يوماً أو أقل من يوم ﴿فاسأل العادِّين﴾ أي الحاسبين المتمكنين من العدِّ قال ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب المدة التي لبثوها ﴿قال إن لبثتم إلا قليلاً﴾ أي ما أقمتم حقاً في الدنيا إلا قليلاً قال الرازي: كأنه قيل لهم: صدقتم ما لبثتم فيها إلا قليلاً فقد انقضت ومضت، والغرضُ تعريفهم قلة أيام الدنيا في مقابلة أيام الآخرة[4] ﴿لو أنكم كنتم تعلمون﴾ أي لو كان لكم علمٌ وفهم لعرفتم حقارة الدنيا ومتاعها الزائل ﴿أفحسبتم أنَّما خلقناكم عبثاً﴾ أي أظننتم - أيها الناس - أنما

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب. (٢) التسهيل ٣/٥٧. (٣) القرطبي ١٢/١٥٤. (٤) التفسير الكبير ٢٣/١٢٧.

﴿خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

خلقناكم باطلاً وهملاً بلا ثواب ولا عقاب كما خلقت البهائم ﴿وأنكم إلينا لا تُرجعون﴾ أي وأنه لا رجوع لكم إلينا للجزاء ؟ لا ليس الأمر كما تظنون وإنما خلقناكم للتكليف والعبادة ثم الرجوع إلى دار الجزاء ﴿فتعالى الله﴾ أي فتنزَّه وتقدَّس الله الكبير الجليل ﴿الملكُ الحق﴾ أي صاحب السلطان ، المتصرف في ملكه بالإيجاد والإعدام ، والإحياء والإفناء ، تنزَّه عن العبث والنقائص وعن أن يخلق شيئاً سفهاً لأنه حكيم ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا ربَّ سواه ولا خالق غيره ﴿ربُّ العرش الكريم﴾ أي خالق العرش العظيم وصفه بالكريم لأن الرحمة والخير والبركة تنزل منه ، ولنسبته الى أكرم الأكرمين ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر﴾ أي ومن يجعل لله شريكاً ويعبد معه سواه ﴿لا برهان له به﴾ أي لا حجة له به ولا دليل ﴿فإنما حسابه عند ربه﴾ أي جزاؤه وعقابه عند الله ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ أي لا يفوز ولا ينجح من جحد وكذب بالله ورسله ، افتتح السورة بقوله ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ وختمها بقوله ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ ليظهر التفاوت بين الفريقين فشتان ما بين البدء والختام . ﴿وقل ربِّ اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ أمر رسوله بالاستغفار والاسترحام تعليماً للأمة طريق الثناء والدعاء ، اللهم اغفر لنا وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء ، يا أرحم الراحمين ، اللهم آمين .

البـلاغـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الامتنان ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ .

٢ ـ التفنن ﴿السمع والأبصار﴾ أفرد السمع وجمع الأبصار تفنناً .

٣ ـ التنكير للتقليل ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ و﴿ما﴾ تأكيد للقلة المستفادة من التنكير والمعنى شكراً قليلاً وهو كناية عن عدم الشكر .

٤ ـ الاستفهام الذي غرضه الإنكار والتوبيخ ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟ ﴿أفلا تذكرون﴾ ؟ ﴿أفلا تتقون﴾ ؟ .

٥ ـ الطباق بين ﴿يُحيي ويميت﴾ .

٦ ـ حذف جواب الشرط ثقةً بدلالة اللفظ عليه ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي إن كنتم تعلمون ذلك فأخبروني عنه

٧ - طباق السلب ﴿وهو يُجير ولا يُجار عليه﴾ .

٨ - تأكيد الكلام بذكر حرف الجر الزائد ﴿ما اتخذ الله من ولد﴾ أي ما اتخذ ولداً وكذلك ﴿وما كان معه من إله﴾ ذكر ﴿مـن﴾ في الجملتين تأكيداً وتثبيتاً للنفي .

٩ - الطباق في ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ .

١٠ - التأكيد بإنّ واللام ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ لإنكار المخاطبين لذلك .

١١ - الطباق المعنوي ﴿ادفعْ بالتي هي أحسن السيئة﴾ لأن المعنى ادفع بالحسنة السيئة فهو طباق بالمعنى لا باللفظ .

١٢ - واو الجمع للتعظيم ﴿ربّ ارجعون﴾ ولم يقل ارجعني تعظيماً لله جل وعلا .

١٣ - المجاز المرسل ﴿إنها كلمة هو قائلها﴾ أطلق الكلمة على الجملة وهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل .

١٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ وبين ﴿ومن خفّت موازينه . .﴾ الآيتان .

١٥ - القصر ﴿أنهم هم الفائزون﴾ .

١٦ - جناس الاشتقاق ﴿اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ .

١٧ - السجع الموزون الخالي من التكلف وهو كثير مشهور .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المؤمنون »

* * *

طُبعَ على نفقة المحسن الكبير

مَعَالِيْ السيّد حَسَن عبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقْفًا لله تَعَالى

يُوزع مجانًا ولا يُباع

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقْفاً لِلهِ تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

